نبيُّ اللَّه موسى عليه السلام

قال تعالى فى سورة القصص: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣] هذه السورة اختصت بموسى وفرعون، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة، والقمة هى ادعاء الألوهية، فجعلها اللَّه سورة وسماها سورة القصص، وقال فيها الحق سبحانه: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ لم يقل: نتلو عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾؛ لأن النبأ أمر مهم، وهل هناك أهم من أن يأتى موسى ليرد واحدا عن ادعاء الألوهية؟ فهى مسألة مهمة حقا، قال اللَّه فيها سنتلو عليك بالحق، وسماه اللَّه القصص، لماذا؟ لأن القصص من قص الأثر، فقد كان العرب قديما يتتبعون آثار الأقدام، فإذا حدث شئ وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل، يسيرون وراء أثر القدم، ويعرفون إلى أين ذهب، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة الخ.

فمعنى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ [يوسف: ٣] أى: نقول لك: أشياء هى الواقعة بالفعل. والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصًا؛ لأن القصص هو الشئ الحقيقى.

ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص؛ لأنه مطابق للواقع إذن ما هو هذا القصص؟ هو فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية، من وزراء ومسئولين. ليس هذا فقط؛ بل إنه علا حتى على ربه والعياذ باللَّه وأراد أن يكون إلهًا، فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد؟! ومادامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى، فسيستخدمها فى إذلال رعيته فهو لم يستعل فى الأرض فقط؛ بل إنه جعل أهلها شيعًا مع أن المفروض فى شرع اللَّه أن الرعية كلهم سواء، فلا تستأثر طبقة

بحظوة عن طبقة أخرى، لكن فرعون جعلهم شيعا وسلط بعضهم على بعض.

ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالقبط، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل، وسكنوا فيها وتناسلوا وكان المفروض أنهم يذوبون فى المجتمع القبطى. والناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى، وهذا خطأ؛ لأن القبطى معناه المصرى القديم، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس، ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى؟ قالوا: لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة الرعاة الذين أزاحوا حكم الفراعنة، وتولى المُلك ملوك الرعاة، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة.

هنا تجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر فى القديم والحديث سماهم فراعين، قال تعالى فى سورة الفجر: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠] وهنا فى قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر: فرعون، لكن فى قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة، ولكن ذُكر لقب الملك، وهذا من إعجازات القرآن؛ لأنه فى أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمدا ﷺ بذلك؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم، وأخبره بما لم يكن يدرى.

وفرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنو إسرائيل؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غزوا مصر، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين. والإفساد أن تأتى إلى شىء صالح فى ذاته فتفسده، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحيى النساء فهذا فساد كبير، لماذا؟ لأن هناك شيئا اسمه استبقاء الحياة، وآخر اسمه استبقاء النوع، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع، فهو يقتل الأولاد؛ خشية أن يناله منهم شر، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال؛ لأنهن ليست لهن شوكة، ولا خطر منهن على ملكه.

والقرآن الكريم قال عن فرعون فى هذه الآية: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية فى ثلاث آيات: ففى سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

﴿ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

الآية الثانية فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

والآية الثالثة ذكرها اللَّه تعالى على لسان موسى لقومه، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

فحين جاءت القصة من اللَّه سبحانه مباشرة قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

وفى الآية الثانية قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فهنا تكلم عن ذبح وقتل، ونحن نلاحظ أن واو العطف جاءت على لسان موسى فى قوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فلماذا لم تأت هذه الواو عندما جاء الكلام من اللَّه سبحانه مباشرة، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام؟ قالوا: لأن موسى يعدد على قومه نعم اللَّه عليهم، وأنت حين تعدد فضائلك على ابنك مثلاً فتقول له: ألم أشتر لك بدلة جديدة؟ ألم أشتر لك حقيبة؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما؟ ألم أشتر لك دراجة تذهب بها إلى المدرسة؟ ألم أدفع لك المصاريف.. إلخ. فأنت تعدد فضائلك عليه أو توضح له كثرتها، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة، فموسى حين تكلم أراد أن يضخم نعم اللَّه على قومه، فذكر يسومونكم سوء العذاب، وعطف عليها يذبحون، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يمتن إلا بالشئ الأصيل من النعم.

وفى الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من اللَّه تعالى مرة قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وفى الأخرى قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلماذا قال فى الأولى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفى الثانية ﴿يُقَتِّلُونَ﴾. قالوا: لأن إزهاق الحياة له وسيلتان إما الذبح وإما الخنق فذكر الوسيلتين، ولابد أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضًا، إذن عندما عطف ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ على ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كان الكلام على لسان موسى، وموسى يريد أن يعدد نعم اللَّه على قومه ويبين أنها كثيرة فقال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لكن ربنا حين يمتن، لايمتن بالنعم الصغيرة ولكن يمتن بالنعم الأصيلة الكبيرة، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء، هو نفسه سوم العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] العلو: هو الطغيان والتجبر والتكبر. وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الألوهية. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى: طوائف يخدم بعضها بعضا، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند الفاعل ملحظ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور؛ لأنه إن استقرت بينهم الأمور، ربما تفرغوا إلى شئ ضده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوبًا من كل واحد منهم، واللَّه سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال؛ لأنه لن يفلح ظلوم، ولا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقم اللَّه منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه. فربما رحمه، وحسبك من حادثٍ بامرئ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥] والمنَّة عطاء معوض بدون مجهود ممن يُعطاه كأنها هبة من اللَّه سبحانه؛ لأن الحق كما قال الإمام على رضى اللَّه تعالى عنه: «إن اللَّه لا يُسلِم الحق، ولكن يتركه ليبلو غيرة الناس عليه، فإذا لم يغاروا عليه، غار سبحانه عليه»، فاللَّه يريد أن يمن على هؤلاء المستضعفين فى الأرض، ليس برفع الظلم عنهم فقط، ولكن بجعلهم أئمة فى الدين، وفى سياسة الأمور والملك، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وإذا أراد اللَّه تعالى فلا تستطيع قوة أن تقف أمام إرادته سبحانه فأمره نافذ ولا راد لمشيئته قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ لأنه تعالى لا يخلق بالمعالجة، ولكنه يقول: ﴿كُن﴾ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فمن عدل اللَّه سبحانه أنه منَّ على المستضعفين بفضله، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط، ولكن جعلهم أئمة، وليسوا أئمة فى مكان آخر غير الذى كانوا مستضعفين فيه، ولكن فى نفس المكان بعد أن ورثهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] كلمة نمكن، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذى يحدث فيه الحدث؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه، فمعنى نمكن أى نجعل الأرض مكانا لممكنٍ فى الأرض وقد كان فرعون مُمكنًا فى الأرض، يتصرف فيها تسلطًا ويأخذ خيرها واللَّه سبحانه أعطانا ذلك فى

لقطات متعددة من القرآن الكريم، فنبى اللَّه يوسف عبر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت، ولا ينال أحد منك شيئا، وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى: أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشئ ويصرفه للآخرين.

ومعنى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أن هامان هو وزير فرعون، وكلمة ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص، أو أن المعنى أن هامان يزاول سلطانه من باطن فرعون؛ لأن فرعون لا يزاول سلطانه إلا بواسطة وزرائه، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان، فالمسألة واحدة. أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون؛ فاللَّه تعالى أراد أن يُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء المستضعفين.. يريهم الشئ الذى كانوا يحذرونه ويخافونه. ما هو هذا الشىء؟ الشىء الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوءة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل، فلما عبَروا له الرؤيا قالوا: إنه سيأتى أحد من جهة بيت المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على المُلك أو أن الكهنة قالوا لفرعون: إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه.

إذا كان الكهنة قالوا له: إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من بنى إسرائيل فى عام كذا، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر، ثم يكون على يديه زوال ملك فرعون، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء، مع أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل، فهو سيقتل غير الذى سيكون ذهاب الملك على يديه، وطالما أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهًا؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بألوهية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب؛ لأن اللَّه أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين، ما كانوا يحذرونه ويخافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على يديهم.

❁❁❁

منزلة موسى عليه السلام عند اللَّه تعالى

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

كأن اللَّه تعالى يريد أن يلفتنا إلى عطاءاته وفيوضاته وهى كثيرة أجلُّ من أن

تحصى، وهو سبحانه يذكِّره بها فى هذا المقام. فاللَّه قد اصطفاه أى اختاره وميَّزه على الناس، وهذه دقة الأداء، فلو أن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ ولم يقل ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق اللَّه، حتى الملائكة المقربين، ولكن الحق سبحانه وتعالى، يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل، هو فى دائرة البشر، ولكن اللَّه تعالى اصطفى من الرسل غير موسى؛ فلذلك نقول: هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة، وبين تفضيل برسالة ومعها شئ زائد، والرسل اصطفاهم اللَّه سبحانه وتعالى بالرسالات، ولكن موسى عليه السلام اصطفاه اللَّه بالرسالة والكلام.

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]. مخلِص - بكسر اللام - أى خلص الغرائز المخلوقة لمهمة، مما يصيبها من شوائب تؤدى إلى الانحراف بها عن هذه المهمة، وأما المخلَص - بفتح اللام - فهو الذى بدأه اللَّه مخلصا من ذلك، دون أن يدخل فى تجربة، وهؤلاء هم الذين يرسلهم اللَّه ليكونوا أسوة سلوكية، فبدلا من أن يخلِّصوا أنفسهم، يخلقهم اللَّه مخلَصين فالمخلَص خلصه اللَّه من شوائب الغرائز، والمخلِص - بكسر اللام - خلص نفسه من شوائب الغرائز، وذلك بالتربية واستعمال منهج الحق سبحانه وتعالى.

ثم يقول تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وكلمة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ النجئ: هو المناجِى الذى يحدثك عن قرب، مع أن اللَّه تعالى كلمه كلاما سمعه موسى، فمعنى ﴿نَجِيًّا﴾ أى: كلاما لا يسمعه سواه؛ لأن كلام اللَّه خصوصية له فلا يسمعه غيره، فلما سمعه موسى وأخفاه عن غيره صار كأنه ناجاه، وهذه عظمة القدرة وطلاقتها تعطى الكلام والمناجاة فى وقت واحد.

وقال اللَّه سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [طه] والسُّؤل هو الشئ المسئول، والمعنى: قد أوتيت مسئولك يا موسى، فالذى سألته أعطيناك ومعنى: ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أى أعطيناك قبل أن تسأل، فنحن لم ننتظر حتى تسأل، ولكننا أعطيناك قبل السؤال، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أى من كل الذى سألتم، وهناك قراءة أخرى تقول: «وآتاكم من كلٍّ - بتشديد اللام والتنوين - ماسألتموه» أى: أتاكم حتى قبل أن تسألوا؛ لأنه سبحانه أعطاك قبل أن تعرف أن تتكلم وتسأل، ومعنى ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أى: مرة ثانية، فهذا اسمه ترتيب ذكرى وإن كانت هذه متأخرة عن تلك.

وكلمة: ﴿مَنَنَّا﴾ المنَّة: تعنى عطاء بلا مقابل، فالجزاء على العمل فى الآخرة

يكون بعمل؛ لأنك عملت عملاً تجازى عليه، ولكن المنَّة أن يعطيك اللَّه شيئاً بغير عمل فالمنَّة بلا مقابل، وذكر وقت هذه المنَّة فقال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ٣٨] فالمنَّة الأولى حدثت وقت أن أوحينا إلى أمك ما يوحى، فأنت يا موسى ولدت فى عام كان فيه فرعون يقتل أولاد بنى إسرائيل، فمننا عليك بأن أوحينا إلى أمك أنها إذا خافت عليك تلقيك فى اليم، وأننا سنحفظك ونردك إليها ونجعلك من المرسلين.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] ولذلك لما رآه فرعون ورأته امرأته، وقع فى قلبيهما حبه، فهناك محبة بأسباب اللَّه، ومحبة بدون أسباب، ولكن اللَّه أرادها.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: وذلك يعنى أن الذى سيربيه فرعون، ولكنه يربيه على عين اللَّه تعالى، فإن تعرض لشئ فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه.

❁❁❁

وحى اللَّه إلى أم موسى

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

«الوحى» فى عموم اللغة معناه: إعلام بطريق خفى. لكن الوحى الشرعى: هو إعلام من اللَّه لرسوله بمنهجه لخلقه، هذا هو الوحى الشرعى، بخلاف الوحى فى اللغة؛ لأنه قد يكون الموحِى هو اللَّه، يُوحى إلى الملائكة كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. كما يُوحى سبحانه إلى الأنبياء والرسل صلوات اللَّهِ وسلامه عليهم؛ كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

إذن.. هناك وحى للملائكة، ووحى للأنبياء والرسل، وهناك وحى للمؤمنين، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾. وكما أوحى سبحانه إلى أمِّ موسى، وإلى السيدة مريم، ليس هذا فقط؛ بل أوحى اللَّه سبحانه إلى النحل. كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ليس هذا فقط؛ بل أوحى اللَّه إلى الجماد أيضا فقال سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ

﴿ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة]. فهذا كله إعلام من اللّه إلى كل الأجناس.

وقد يكون الإعلام من الشيطان؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد يكون الوحى بين الضالين من بعضهم لبعض، كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

إذن.. فالوحى على إطلاقه: إعلام بطريق خفى، إلى أى مخلوق، فى أى موضوع.

وأما الوحى الشرعى: هو من اللّه تعالى للذى اصطفاه من رسله بمنهج يهدى به خلقه، فالوحى إلى أم موسى من المرتبة الرابعة، لكن هل الوحى إلى أم موسى كان نفثا فى الروع وإلهامًا؟ يجوز. وهل كان بواسطة رؤيا؟ يجوز. وهل كان بواسطة ملك كلّمها وأرشدها إلى هذا الفعل؟ المهم أن الذى أوحى بذلك إلى أم موسى هو اللّه سبحانه وتعالى.. أوحى إليها بماذا؟

الأمـر الأول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

والأمر الثانى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

ومن النواهى: قول اللّه تعالى لأم موسى: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾.

وهناك خبران وبشارتان: فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ آية واحدة جمعت بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، فى إيجاز معجز.

وقضية الوحى إلى أم موسى وردت فى القرآن مرتين، فظن المستشرقون أن القرآن يكرر الآيات دون داعٍ، وجاءوا بقول اللّه تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ... ۝٣٩﴾ [طه] وهنا هذا الوحى لم يذكر أن أرضعيه؛ لأن الرضاع فى وقت الأمان، لكن الوحى هنا جاء فى وقت الخوف، وكلمة ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ دليل الاستعجال واللهفة، فليس فيها حنان؛ لأنه ليس هناك وقت للعواطف، فتقذفه فى التابوت، ثم تقذف التابوت فى البحر، ثم أمر اللّه البحر أن يلقى التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون.

إذن.. مادام لم يذكر كلمة: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ فى هذه الآية، فهذا دليل على أن

الحديث هنا عن الموقف ساعة الخوف عندما أمرها اللَّه بإلقائه فى اليم بالفعل، فكأن الوحى الأول تمهيد لما سيحدث لتستعد نفسيا للعمل.

ولذلك تجد فى الكلام الأول اطمئنانا، وذلك فى قول اللَّه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تجد الكلام يغلب عليه طابع الهدوء والاطمئنان؛ لأنه ليس فى وقت الحدث.

ولكنه تمهيد وإعداد لما قبل الحدث، لكن الكلام فى الآية الأخرى جاء وقت الحدث، فكأنه يقول لها: هيا ضعى الولد فى التابوت، واقذفيه فى اليم قبل أن يقتله جنود فرعون، ألقيه بسرعة؛ ولذا تجد الأسلوب فى سرعة واستعجال؛، فالوقت لا يسمح بالإطناب. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فاللَّه قد طمأنها عليه حتى لا تخاف، لأنه حين يلقيه اليم بالساحل فهذا أمان له.

ويقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] كل واحد منا له صدر، والصدر فيه القلب، والقلب فيه الفؤاد. والقلب لا يسمى فؤادا إلا إذا كان فيه قضايا تحرك حركته، وكلمة «فارغ» معناها: ليس فيه شىء ينفع، وليس فيه قضية تضبط التصرف، فأم موسى أصبح فؤادها فارغًا من الشىء الذى يضبط التصرفات؛ لأنها لم تكن قادرة على تحمل هذا الموقف الصعب، لولا أن ربط اللَّه على قلبها وصبرها.

والإنسان حين يدرك شيئا يدركه بآلة إدراك، فإما أن يسمعه أو يراه أو يلمسه أو يشمه أو يتذوقه، فمثلاً لو كنت سائرا فى بستان، ورأيت وردة جميلة أعجبتك فأنت ساعة نظرت إليها استقر فى نفسك وجدان تجاهها، فإذا أردت أن تقطفها فهذا يسمى نزوعًا، فالذى يضبط قضية النزوع هذه هو: هل ستقطف هذه الوردة من بستان مملوك لغيرك ؟ فتجد عندك قضية فى قلبك، وهى أن هذا ليس من حقك لأنها ليست ملكك.

إذن.. فى القلب قضية، وهى ألا تتعدّى على ما ليس لك، وإن كنت تريد وردة فعليك بشرائها أو زراعتها، فهنا أنت قد أدركت ووجدت فى نفسك إعجابًا واستقرارًا، وأردت أن تنزع لكى تملك، لكن الذى منعك من قطفها قضية مستقرة فى قلبك وهى أن هذا الشىء ليس من حقك، وأن صاحبها قد يعاقبك أو يقاضيك... إلخ.

فأم موسى كان قلبها فارغًا من القضية التى تجعلها تصبر، ولا تذكر سيرة هذا

الولد لأى إنسان، لكن لأنها أم - والأم تخشى على ابنها من أقل خطر - فكادت تبدى قلقها، لولا أن ربط الله على قلبها؛ فالربط على القلب حتى يصبح الأمر عقيدة لا تطفو على السطح.

فقول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول: هذا ابنى. لولا أن ربط الله على قلبها، فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين؛ لأن الإيمان يمنعك من الضار ويجلب لك النافع، وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك، فهذا ابنك حقا، وأنتِ ملهوفة عليه، لكنك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه فى الحال، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيا.

❁❁❁

عودة موسى إلى أمه

يقول تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] فالتحريم هنا ليس كتحريم بعض الأشياء التى حرّمها الله علينا؛ لأن هذا طفل لم يبلغ سن التكليف، ولكن المعنى: منعناه من أن يقترب من أية امرأة تأتى لترضعه؛ حتى يبحثوا له عن مراضع. فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] فلما قالت ذلك، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل، قالت: لا، ولكنهم ناصحون، محبون للملك ومخلصون له.

فرّده الله إلى أمه، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣] فرده الله سبحانه إلى أمه كى تفرح وتقرّ عينها به ولا تحزن على فراقه.

وكلمة ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ إلى أمه تدل على أن الأسباب فى يد المسبِّب، فالله رده لأن الله يجرى الأمور وفق إرادته ومشيئته ويحول بين المرء وقلبه، ولتعلم أن وعد الله حق فى قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] فحفظه الله تعالى وردّه إليها، كما وعدها من قبل.

❁❁❁

خروج موسى إلى مدين

ثم تمضى الأحداث فيقول اللّه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أى: فى وقت القيلولة؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين، وهناك بعض المدن يمنعون من دخولها؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم، وكان موسى واحدا منهم، ولكن اللّه جعل موسى يعزم على دخول المدينة - وهى «منف» - فأراد أن يدخلها فى وقت غفلة من أهلها، واختار وقت القيلولة لأن الناس يقيلون فيه فى بيوتهم، فلما دخلها وجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من شيعته أى من بنى إسرائيل، والآخر من القبط.

ومعنى استغاث: أى طلب الغوث، فاستغاثه الإسرائيلى على القبطى فوكزه موسى ،أى ضربه بِجُمْع يديه ،فجاء قدر القبطى مع الوكزة، فلم يمت من الوكزة، ولكنه مات عندها لا بها لأن ساعة أجله قد حانت لما ضرب موسى الرجل فمات، حزن وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان؛ لأنه عدو مضل واضح الضلال، فاستغفر ربه وأناب إليه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] ساعة يخطئ الإنسان ويفعل ذنبا ويعرف أنه أذنب لا يكابر فيه، بل يبادر على الفور ويقول: أنا ظلمت نفسى وحكمك الحق يارب فاغفر لى.

موسى عليه السلام لما استغفر ربه غفر له؛ لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم؛ لأن الإنسان إذا أصابته غفلة، واقترف ذنبًا ولم يفتح اللّه له باب التوبة والمغفرة، لكان الذى يخطئ ويعمل ذنبا واحدا فى حياته، ييأس ويعمل كل الذنوب؛ لأنه وقع فى الخطأ ولا توبة له. إذن.. مشروعية التوبة من اللّه، والمغفرة لمصلحة الناس تعطى صاحب الذنب أملاً فى أنه لم يطرد من رحمة اللّه تعالى.

ولما غفر اللّه تعالى لموسى وقبل توبته، عاهد موسي ربه ألا يكون ظهيرا للمجرمين، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أى يا رب، بما أنعمت علىّ بالمغفرة وعذرتنى وتبت علىّ، أعاهدك يا ربى أننى لن أكون معينا للمجرمين. وأصبح بعد هذا الحادث خائفا يترقب قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]

﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أى يرقب انفعالات الناس المقبلين عليه لأنه يخشى أن يؤذوه انتقاما للقبطى الذى مات فى المشاجرة.

لما أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ خشية أن ينتقموا منه، وجد الرجل الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يستصرخه.

قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] أنت تريد أن تغوينى لأكرر خطأ الأمس، ومع ذلك حنّ لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره، وقال له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه، ولم يجد موسى بدا من الخروج، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى: خرج من المدينة متخفيا؛ خشية أن يراه أحد؛ لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئا، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحدًا ؟

❁❁❁

موسى . . وابنتى شعيب

الله يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] قصة قصيرة موجزة، لكنها تحدد مهمة المرأة ومهمة المجتمع، ومتى تكون الضرورة، وكيف تقدر بقدرها ؟ موسى عليه السلام ورد ماء مدين، وكلمة ﴿وَرَدَ﴾ ليس معناها الشرب، ولكن معناها الوصول عند الماء، فالورود لا يقتضى الشرب.

فلما جاء موسى العين، أو البئر التى كان يشرب منها أهل مدين، وجد عليها أمة، أى: جماعة من الناس، يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد امرأتين تذودان ومعنى ذاد الشىء: أى منعه أن يفعل كذا، فالغنم تندفع نحو الماء وهما تمنعانها؛ حتى يسقى الناس أنعامهم.

ولما رأى موسى هذا الأمر استغرب؛ إذا كان الناس جاءوا إلى البئر ليسقوا أنعامهم، فلماذا تمنع هاتان المرأتان أغنامهما من الاقتراب من الماء؟

فسألهما وقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى: ما حكايتكما؟ ولماذا تفعلان ذلك ؟

فأخبرتاه أنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء، هنا كلمة ﴿يُصْدِرَ﴾ وفيه أيضا أصدر يُصْدِر، كلمة صدر أى هو بذاته، وورد هو بذاته، وأصدر: أى أرسل غيره، وأورد: أى أرسل غيره أيضا.

و ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أعطت حكما. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أعطت حكما ثانيًا ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أعطت حكما ثالثًا.

فأخذنا من هذه الآية ثلاث قضايا: لا تخرج المرأة لعمل الرجل إلا للضرورة، فالضرورة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، ونأخذ الضرورة بقدرها ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، والمجتمع الإيمانى عليه أن يساعد أصحاب هذه الحالات ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ كأنه كما حدثت القصة طوال رحلته لم يتيسر له الحصول على الطعام، وكان يأكل من بقل الأرض حتى نحل جسمه، وأصبح مهزولا، وضعف من قلة الأكل. ومع أنه على هذه الحالة من الضعف، فهو عندما رأى المرأتين فى هذا الموقف قام وسقى لهما، وقضى مصلحتهما، ومعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أن يتجه إلى المعونة، وحين يتجه إلى المعونة فلن يفعل هو بقوته، وإنما يفعل بمعونة اللَّه، وبعد أن سقى للبنتين رجع إلى الظل مرهقا متعبا، بدليل أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ دعاء بما يناسب الإجابة؛ لأنه كان يستطيع أن يقول: يا اللَّه لكن كلمة «اللَّه» تعنى المعبود الذى له أوامر، لكن الرب هو متولى التربية، ولذلك جاء بالصفة التى تناسب الموقف، أى: يا رب، أنت الذى خلقتنى وأوجدتنى فى هذا الكون، ومادمت كذلك فأنا جائع أريد الطعام. ومعنى: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ﴾ أى أن هذا الرزق من عندك أنت، وإن جاءنى الآن أحد بطعام فأنت الذى أنزلته إلى.

وبينما هو يناجى ربه طالبا العون والمساعدة جاءه الفرج من عند اللَّه، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] أى: جاءته إحدى الابنتين تمشى فى حياء، فعندها حياء فى المجئ وحياء فى المشى،

فأخبرته أن أباها يدعوه إلى مقابلته؛ ليجزيه على شهامته وسقى الغنم لهما، فموسى لبى الطلب ولم يرفض الدعوة؛ لأن بابًا من الرزق سيفتح له وهو فى حالة صعبة، هنا لم يذكر القرآن الكريم كيف مشى موسى إلى بيت شعيب، وكيف دلّته ابنته على الطريق. موسى لم يكن يعرف الطريق، والفتاة هى التى ستدله عليه، ومادامت ستدله لابد أن تسير أمامه وحينما تأتى الرياح من الخلف فإنها تكشف الجسم أو تحدد معالمه، فلما سارت أمامه لتدله على الطريق، حوّل موسى وجهه بعيدا عنها، وقال لها: سيرى خلفى ودلينى على الطريق بقذف الحصى، فلما وصل إلى بيت شعيب وحكى له القصة وهروبه من مصر وتربُص القوم به طمأنه وقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وهذه الآية أعطتنا حكما جديدا بعد الأحكام الثلاثة التى ذكرناها سابقا، فمع أن الضرورة هى التى اضطرت البنتين إلى الخروج وأخذتا هذه الضرورة بقدرها ولم تزاحما الرجال، والمجتمع المسلم يساعدهما فى ذلك، فالبنت حينما وجدت الإنسان الأمين طلبت من أبيها أن يستأجره، وهذا دليل على أنها لم تهوَ الخروج، وتريد أن تجد من يعفيها من هذه المهمة، بعكس الحال عند كثير من النساء اليوم، التى تبذل الواحدة منهن كل ما تستطيع من أجل الخروج ومزاحمة الرجال، يسر اللّه لهن من يكفيهن مشقة الخروج، وشرح صدورهن للالتزام بالمهمة التى من أجلها خُلقن.

قال بعض العلماء أن موسى عليه السلام حينما وجد الناس يسقون، ووجد المرأتين تذودان لم يذهب ويجترئ على الرعاة ويزاحمهم، ولكنه تركهم وشأنهم وتلفت حوله، فوجد بعض الخضرة والحشائش فعرف أنها لا تنمو إلا فى وجود الماء فبحث عنها، فاهتدى إلى وجود بئر أخرى فى هذا المكان، ولكنها كانت مردومة بحجر، فأخذ يزحزح هذا الحجر من فوق البئر حتى كشف عن الماء وسقى للبنتين، وكان هذا الحجر كبيرا لا يقوى على حمله عدد من الرجال، فعرفت البنت أنه قوى، وحينما سارت أمامه لتدلّه على بيت أبيها وهبّت الريح، طلب إليها أن تمشى خلفه، فعرفت أنه أمين؛ فلذلك قالت لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

الأب كان عنده حزم؛ لأن موسى سيدخل بيته ويرعى غنمه، والبيت فيه بنتان وموسى غريب عنهما، فوجد الأب أن أفضل حل أن يزوجه إحداهن فتصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه.

فقال شعيب لموسى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] أى: تكون أجيرا عندى لمدة ثمان سنوات، فإن أكملتها عشر سنوات فهذا كرم منك، ولن أشق عليك فى العمل، وحين تعايشنى، ستعرف أنك عايشت رجلاً من الصالحين تحب ألا تفارقه، وستكمل العشر سنوات برغبتك وإرادتك، فوافق موسى على هذا العرض وقال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] أى: هذا الاتفاق بينى وبينك سواء قضيت ثمانى أو عشرًا فلا عدوان علىَّ، وهنا العلماء أخذوا من هذه الآية حكما آخر فقالوا: هل يعنى هذا الكلام أن موسى سينتظر عشر سنين ثم يبنى بالبنت رغم أنهما اتفقا وأشهدا اللَّه على هذا الاتفاق؟ قال العلماء: لا ليس المقصود ذلك، ولكن تسمية المهر هى المطلوب، أما قبضه فيمكن أن يؤخر، أو يُقَدَّمَ جزء منه ويؤخر جزء، لكن لابد من تحديده، فتسمية المهر هو الشرط، أما قبضه فليس مهمًا، بدليل أنه اشترط أن يزوجه ابنته على أن يعمل عنده ثمانى سنوات أو عشرًا واتفقا على ذلك، وبنى موسى بالفتاة قبل أن يقضى جزءا من هذه المدة.

❁❁❁

عودة موسى وأهله

ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]. ﴿ٱلْأَجَلَ﴾ هو: الثمان سنوات أو العشر. والحق سبحانه أطلق على الزوجة: أهلَ الرجل، أو إن الجماعة معى؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها، وتزيد شيئا لا يصح أن يقضيه غيرها، فقامت مقام الأهل أو الجماعة.

ومعنى ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر ورأى أو أحس بشىء يؤنس، من الأنس. ﴿ٱلطُّورِ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء، ومعنى ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أى: انتظروا فى هذا المكان.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ معناه أنه يخبرها، وأنها لم ترها، ولو كانت ناراً مادية من صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية، فكأن هذه حالة خاصة به.

وكلمة ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ تفيد الرجاء؛ لأنهما كانا تائهين لا يعرفان أين يذهبان، ولا أين الطريق، فهذا هو الخبر الذى يسألان عنه، وكان الجو باردا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شىء

يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما، وشيء يدفئهما من البرد، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معا برؤية هذه النار.

وقال فى آية أخرى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا﴾ [النمل: ٧] على سبيل اليقين، لكنه راجع نفسه بعد ذلك، وتوقع أنه ربما ذهب إلى النار فوجدها انطفأت، فقال ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ على سبيل الرجاء. والنار التى سيأتى بها أنواع، فإن كانت النار مشتعلة سيأتى بشعلة، وإن كان اللهب انتهى يأتى بجذوة، أو جمرة من النار؛ ولذلك قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، والاصطلاء: هو التدفئة، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات، فلما وصل موسى إلى النار ماذا حدث؟

❁❁❁

وصول موسى إلى الوادى المقدس

قال اللّه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه]. «هل» أداة استفهام، والاستفهام طلب الفهم، ولكن اللّه تعالى يعلم الحكاية كلها وليس فى حاجة إلى الاستفهام من أحد، ولكن هذا أسلوب تشويق وهو: إلقاء صيغة الاستفهام، ولم يكن يعلم موسى هل سيدرك لهبا، أم أنه سيصل إليها بعد أن ينطفىء اللهب وتبقى الجمرات؟ فمرة تجده يقول: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، ومرة يقول: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وحاجته إلى النار كانت شديدة، لأن الليلة كانت ممطرة والجو بارد وهم غرباء عن المكان. وكان مع نبى اللّه موسى زوجته، وابنه، وخادمه، وكانوا جميعا فى حاجة إلى التدفئة؛ ولأنهم غرباء كانوا فى حاجة إلى دليل يهديهم إلى الطريق الذى يسلكونه إلى مصر، وذلك قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾.

إذن.. تعددت الكلمات لأن الموقف لا يمكن أن ينتهى بكلمة؛ لأنهم لن يتركوه يذهب بسهولة. فالحق سبحانه ذكر كل هذه اللفظات فى آيات كثيرة حتى يجمع القصة كلها، ومعنى: ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أى: أجد أحدا يهدينى بأن يدلنى على الطريق الذى سيوصلنى إلى غايتى.

ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه]. قال المفسرون إنه لما أتاها وجد نورا يتلألأ فى شجرة، وهذا النور الذى يتلألأ فى الشجرة لا خضرة الشجرة تؤثر عليه فتبهته، ولا النور

يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها.. مسألة عجيبة لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذى رآه موسى عليه السلام على الشجرة.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ هناك كلمتان متقابلتان: «آنست» و «توجست» فمعنى «آنست» أى: شعر بشىء يؤنس به، ويُفرح، ويطمئن. و «توجست» أى: شعرت بشىء يخيف؛ ولذلك يقولون توجست شرا.

نبى اللَّه موسى لما أتى هذا المكان هاله منظر النور الذى رآه ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، وهذا معناه أن الذى يناديه يعرفه جيدا، وما دام يعرفه جيدا، فلعله اطمأن حينما سمع من يناديه باسمه، مع أنه أخذ يبحث عن مصدر النداء فلم يعرف. بعد ذلك قال له الحق سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذى لم يطغَ أحدهما على الآخر، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه، لأن هذا شىء من عند اللَّه تعالى، ولا يقاس بأحداث البشر، فاطمأن على أنه فى حضرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى.

وكلمة ربك فى قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ تفيد الإيناس، لأن كلمة اللَّه مطلوبها عبادة وتكليف لأن اللَّه مطاع فيما يأمر، لكن الرب «عَطَّاء» حتى للكافر فخاطبه بصفة الرب الذى يتولى التربية.

إذن.. فالألوهية تطلب منك أن تفعل، وتقيد حركتك، بينما الربوبية كلها عطاء، فالحق سبحانه خاطب موسى عليه السلام بالربوبية والعطاء فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ لم يقل إننى الرب المطلق، ولكن قال له أنا ربك أنت وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة تختلف عن باقى الخلق جميعا؛ ولذلك قال له فى آية أخرى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰٓ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] وقال أيضاً: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١] فهو سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده.

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه، وعلة ذلك أنه بالوادى المقدس الذى اسمه «طوى». وفى آية أخرى يقول: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وهذا ليس تكرارا فى القرآن.

❁❁❁

عصا موسى واستخداماتها

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء]. إلقاء العصا أخذ فى القرآن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: هى التى واكبت اختيار اللَّه لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال اللَّه له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه].

اللَّه سأل موسى عن الذى فى يده، وموسى عليه السلام كان يمكن أن يجيب بأنها عصا، ولكنه إنسان كُرّم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أُنسه بكلام اللَّه سبحانه، فذكر صفات العصا واستخدامها وفوائدها له.

ولكن أخبره اللَّه تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقيها، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]. فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا، والعصا معروف أنها كانت غُصنًا من شجرة، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية، وصارت جماداً بعد قطعها من الشجرة، ومع ذلك فهى لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية، وهى مرتبة أعلى من النباتية.

موسى ساعة رأى هذا المنظر خاف، فطمأنه ربه وقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه ٢١]. فأمسكها فصارت عصا، فكأن اللَّه تعالى يدربه على المهمة، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها؛ خشية ألا تتحقق المعجزة، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقاً من المعجزة.

والمرحلة الثانية: حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته.

والمرحلة الثالثة: حينما ألقاها أمام السحرة فى يوم الزينة.

هنا يقول ربنا سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء]. ومعنى ثعبان مبين. أى: واضع «الثعبانية» من حياة وحركة وشكل وكل شىء.

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أوصاف: مرة يصفها بالثعبان، ومرة بالحية، ومرة بالجان، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فيها فهى حية وثعبان، وجان

فهى فى خفة حركتها كأنها جان، وفى شكلها المرعب كأنها حية، وفى تلوينها كأنها ثعبان. فى الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف.

وموسى أسمر اللون، ومن معجزاته أن سيضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار، فالجيب ليس هو جيبك الذى تضع فيه المنديل أو النقود، ولكن الجيب معناه فتحة الصدر، موسى أخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين.

❁❁❁

ما أجراه اللّه على عصا موسى لم يكن سحرا

خرق الناموس يكون بإذن اللّه تعالى للرسل والأولياء. إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: منها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا، وهى فرع من شجرة، وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى.

إن ما أجراه اللّه على عصا موسى لم يكن سحرا، ولكنه نقلها من جنس إلى جنس، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٨]، وجاء الأمر بإلقاء العصا: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾؛ ولذلك كان لابد أن تُدهش المسألة موسى عليه السلام؛ لذلك أوجس خيفة، ولأن موسى عرف سر عصاه، فلم يوجس خيفة عندما تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم، ولكن اللّه أتاه بمعجزة ستبهر حتى السحرة. فالسحرة يعلمون أنهم يغيرون من تخيل الناس للأشياء، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها. لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون فى يوم الزينة ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السحرة كان موجودا؛ ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة، ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر، فإنهم جميعا سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه، وقالوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء] إنهم عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية، ولكنه قدرة فوق قدرة البشر.

ولكن كل آية تعطى لقطة، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة، فالوادى

المقدس اسمه «طوى»، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى ﴿شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. فهذا تحديد للمكان، ولكن لماذا أمره بخلع نعليه؟ قالوا لأنه ما دام واديا مقدسا لا يصح أن تفصل جسمك بشىء يفصلك عن هذا الوادى مع أنه يمكنك أن تصلى فى نعلك ما دام طاهرا ولكن هنا الوادى مقدس أى مطهر؛ ولذلك بعض الناس كانوا يمشون حفاة فى المدينة المنورة لعلهم يصادفون موطئا لقدم الرسول ﷺ.

ثم أخبره أنه اختاره لمهمة فقال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]. فاللَّه تعالى اختاره، وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لم يقل له: «اسمع» لأن الإنسان يسمع ما يهمه وما لا يهمه؛ لأن الأذن ليست كالعين يمكن إغلاقها عن الشىء الذى لا تحب أن تسمعه، ولكن «استمع» معناها: أن تتكلف السماع. إذن.. هناك سمع وهذه ليس لك فيها خيار، واستمع: تكليف أن يسمع؛ ولكن تسَمَّع أى طلب السماع وأرهف أذنه من أجله.

ومعنى ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ أى هيىء كل جوارحك لأن تسمع، لأن الأحاسيس مختلفة. هناك أذن تسمع، وهناك عين تبصر، وأنف يشم، ولسان يتكلم، ويد تلمس ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ أى: جند كل حواسك وأعضائك للسماع واستحضر قلبك ونفذ المطلوب الذى ستسمعه وقوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ أى: يأتيك عن طريق الوحى.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، أى: أنا اللَّه صاحب الأمر والنهى. لماذا قال اللَّه له ذلك؟ لأنه سيكلفه، والتكاليف دائماً شاقة على النفس، فعطاء الألوهية تكليف بينما عطاء الربوبية نعم وخيرات ينهل منها العبد فى الدنيا، وكلمة: «لا إله إلا اللَّه» هى المنتهى وهى الينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى، وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا اللَّه[1]»، وما دام لا إله إلا هو سبحانه، فلا يصح أن نتلقى عن أحد غيره ولا نعتمد إلا عليه ولا ننشغل إلا بذكره سبحانه.

وكلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ معناها: أنك لن تتلقى أوامر من أحد غيرى، وقوله

جزء من حديث رواه مالك [١/ ٢١٤] والبيهقى فى الكبرى [٤/ ٢٨٤/ ٨١٧٤]، والمحاملى فى الدعاء [٦٥/ ٤] عن طلحة بن عبيد الله بن كريز وقال محققه: حديث مرسل صحيح، رجال إسناده ثقات.

تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أى: أطع أوامرى، واجتنب النواهى؛ لأنه ليس لى مصلحة فى ذلك ولكنها مصلحتك أنت.

❁❁❁

إيناس اللَّه تعالى لموسى عليه السلام

أراد اللَّه تعالى أن يؤنس موسى عليه السلام فقال له: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] «ما» استفهام، والتاء: إشارة لشىء مؤنث، والكاف: لخطاب موسى. أى: ما هذا الذى معك يا موسى؟

أنت إذا سألت أحداً وقلت له: ما هذا الشىء الذى معك؟ يقول لك معى كتاب، أو قلم، أو مصحف، أو أى شىء معه، فلما قال الحق تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ كان الجواب الذى هو على قواعد اللغة أن يقول له عصا. لكنه يعلم أن الذى يخاطبه يعلم أن التى معه عصا، ولكن هذا كلام الإيناس؛ لأن الموقف صعب على موسى، فأراد اللَّه أن يؤنسه، ومقام الإيناس إذا كان من اللَّه لعبده؛ فلابد أن يستغل العبد هذا الإيناس، فلا يرد ردا مقتضبا. كما يقولون: «كلمة ورد غطاها»؛ فموسى لأنه يكلم ربه ويريد أن يطيل أُنسه به قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨] مع أن اللَّه لم يسأله عن عمله بهذه العصا، ولكن موسى أطال فى الإجابة؛ لأن هذا مقام الأنس فى الخطاب مع اللَّه، ولا ينهيه إلا زاهد فى اللَّه - حاشا للَّه - فكلمة ﴿هِيَ﴾ فى الجواب غير مطلوبة ﴿عَصَايَ﴾ لم يقل له لمن هذه العصا، ولم يقل له ماذا تفعل بها؛ حتى يقول له إنه يتوكأ عليها ويهش بها على الغنم، وأن له فيها مآرب أخرى، والعصا لها تاريخ طويل فهى أولاً لازمة للتأديب والرياضة، ولازمة من لوازم الأسفار.

فموسى حينما تكلم مع ربه ذكر بعض فوائدها فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ وذلك حين يكون ماشيا أو متبعا؛ وذلك لأن المشى عنده حركتان فهو يحتاج إلى طاقة لحركة المشى بقدميه، ويحتاج إلى طاقة أخرى؛ لأن القدمين تحملان بقية الجسم، فإذا تعب وأصبحت قدماه لا تقويان على حمل الجسم، فإنه يعتمد على العصا، فتساعده فى حمل الجسم، فإن كان عنده بعض القوة يستطيع أن يمشى قليلاً، وإن لم يكن عنده يجلس.

❁❁❁

من معجزات موسى عليه السلام

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ

فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] الكفار طلبوا من الرسول ﷺ بعض الآيات والمعجزات مثل: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، وأن يكون له بيت من زخرف، وأن تكون له جنة من نخيل وعنب، وغير ذلك، فالحق سبحانه وتعالى بينّ لهم أن غيره طلبوا آيات وجاءتهم، ومع ذلك كفروا؛ لأن المسألة كلها تعنت وتهرب. فاللَّه تعالى أتى موسى عليه السلام تسع آيات واضحات مشهورة؛ لأنها كلها كانت على مشهد من الناس ورأوها ومع ذلك لم يؤمنوا.

من هذه الآيات: الحية التى انقلبت عصا، ويده يدخلها فى جيبه تخرج بيضاء، وأخذ اللَّه تعالى آل فرعون بالسنين ونقص الأموال والثمرات، فكذبوا فابتلاهم اللَّه بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهذه تسع آيات.

بعض المفسرين يقولون: نبى اللَّه موسى جاء بآيات كثيرة وليس تسعاً فقط، وذلك مثل: الحجر الذى ضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وعملية نتق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، والمنّ والسلوى كل هذه آيات أنزلها اللَّه لنبيه موسى.

هنا علينا أن نفهم النص، اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ﴾ وهى الآيات الخاصة بفرعون.

هنا الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

كيف يكون السؤال لبنى إسرائيل الذين جاءهم موسى بالبينات؟ سؤالهم متعذر لأنهم ماتوا والموجود ذريتهم، ولكن السؤال لهؤلاء هو عين السؤال لذريتهم الذين تناقلوها فيما بينهم إلى أن وصلت إليهم، كما قال اللَّه مخاطباً بنى إسرائيل المعاصرين لرسول اللَّه ﷺ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]. مع أن هؤلاء اليهود لم يشهدوا هذه الأحداث، ولكنها وقعت لآبائهم وأجدادهم، لولا أن اللَّه نجى آباءهم وأجدادهم من الهلاك، لما وجدوا هم أنفسهم، فكأنه سبحانه نجاهم؛ لأن نجاة آبائهم نجاة لهم. لماذا يسأل رسول اللَّه ﷺ بنى إسرائيل؟ لأنهم الأمة التى لها علاقة بوحى اللَّه ولها اتصال بالرسل، واتصال بالكتب المنزلة على الرسل، كالتوراة والإنجيل، ولكن مشركى قريش ليس لهم صلة بذلك.

موسى رغم كل هذه الآيات التى جاء بها قال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وكلمة: «مسحور» هل هو الساحر أم سحره غيره؟ قالوا: هناك اسم

مفعول ويرد بمعنى اسم الفاعل لحكمة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فهل الحجاب ساتر أم مستور؟ قال العلماء: إن المعنى حجاب ساتر، ولكن اسم المفعول جاء بمعنى اسم الفاعل لأن اللَّه يؤكد الستر، فيقول إن الحجاب ليس ساترا فقط ولكنه مستور أيضاً فإذا كان الحجاب نفسه مستوراً فمعنى ذلك أن الستر أحكم، ومثل: «الظل الظليل» أى: المظلل، لأنه ظل مركب فكأن الظل مظلل وكلمة «المسحور» بمعنى المخبول أى أثر فيه السحر فصار مخبولاً مجنونا، وهذه الكلمة قالها الكفار لرسول اللَّه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]. ونفس الكلمة قالها فرعون لموسى عليه السلام.

مرة يقولون ساحر، وهذا كلام غير منطقى؛ لأنه إن كان قد سحر الذين آمنوا به، فلماذا لم يسحر باقى الكفار وتنتهى المسألة؟

وإن كان مسحوراً؛ فالمسحور هو المخبول الذى تتأتى منه حركات دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البدائل، فليس له سيطرة إرادة على نفسه ولا سيطرة خلق، والرسول لم يكن كذلك. قال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]. والمجنون لا يكون على خلق عظيم أبداً، وحتى فرعون تناقض مع نفسه فى هذه القضية، فهو يتهم موسى بأنه مسحور، وحين يخر السحرة ساجدين ويؤمنون بموسى، تجد فرعون يقول لهم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] فهذا دليل على التخبط؛ لأن الساحر لا يسحره أحد.

وكان ردُّ موسى عليه السلام على فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تشير إلى الآيات الكثيرة التى أنزلها اللَّه على موسى؛ لتكون حجة على فرعون وقومه، فأنت يا فرعون تعلم أن هذه الآيات منزلة من عند اللَّه وأن موسى ليس بساحر أو مجنون، فهو يعلم ذلك فى قرارة نفسه. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤] فهو على يقين من صدق موسى، وأن هذه الآيات من عند اللَّه، ولكنه يعلم أنها ستزلزل سلطانه.

وكلمة: ﴿بَصَآئِرَ﴾ معناها أن هذه الآيات تعطى بصيرة للناس تفتح بصائرهم، وتجعلهم يقبلون على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغ فيه القوم.

والمثبور هو: الممنوع عن أى خير أو الهالك، وهذا القول من موسى لفرعون دليل على أن اللَّه أطلعه على أن هذا الرجل سيهلك، ويغرق، ويموت على كفره.

ففرعون اتَّهم موسى بأنه مسحور، وموسى عليه السلام لم يسكت على ذلك بل رد عليه بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

ولا شك أن المسحور أفضل من المثبور؛ لأن المسحور أو المجنون تصحبه حياة وإن كان عقله غائباً، أما المثبور فهو الهالك أو الممنوع عن أى خير.

❁❁❁

تدريب موسى على استخدام العصا

قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ما هذه العجائب؟ فى البداية النار تشتد اشتعالاً فى الشجرة، والشجرة تزداد اخضراراً؛ لا النار تحرق الشجرة، ولا الخضرة تطفىء النار، ويأتى الكلام - كلام اللَّه من كل جانب - وبعد ذلك العصا تنقلب حية، مع أن العصا أصلها فرع شجرة جاف، فكان من الممكن أن تكون المعجزة بأن تنقلب العصا شجرة خضراء؛ لأن الشجرة من جنسها، ولكن العصا هنا تعدت مرحلة النباتية، وذهبت إلى مرحلة الحيوانية، وليست الحيوانية الهادئة العادية، ولكنها انقلبت ثعبانا بكل ما فى الثعبان من صفات. وأمام هذا المنظر المرعب ولى موسى مدبراً أى: جرى إلى الخلف فناداه ربه: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ أى: ارجع ثانية ولا تخف، واعطى له القضية التى يجب أن يصحبها موسى فى كل تحركاته فى الدعوة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ لم يقل له الحق سبحانه: أنت هنا فى أمان، ولكن قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ فهى قضية مستمرة طمأنه اللَّه بها؛ لأنه فى معية اللَّه، فإذا كنت ستخاف وأنت فى معية اللَّه، فماذا ستفعل أمام فرعون؟ ولذلك جعل اللَّه لموسى دربة معه، وجعل له دربة مع فرعون وخاصته، ليعده للجولة الأخيرة مع فرعون وخاصته وجمهوره والسحرة والقوم كلهم، فكان لابد أن يؤنسه مرة ومرة، حتى يقبل على مواجهة المواقف بلا خوف ولا وجل، ويثق من نصر اللَّه وتأييده له.

انتفع موسى عليه السلام بهذه المواقف كلها؛ ولذلك لما جاء قوم فرعون وراءه وأخذوا يدركونه حينما خرج من مصر ببنى إسرائيل، ماذا قال أصحاب موسى؟ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فلما قالوا ذلك قال موسى بملء فيه:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] قال هذا الكلام من الرصيد الموجود عنده من وعد اللَّه له بالتأييد والنصر.

۞۞۞

واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]. اليد معروفة، والجناح معروف أنه للطير، ويقابله فى الإنسان الذراعان. والحق سبحانه حين يوصينا بحسن معاملة الوالدين يقول تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤] فالحق سبحانه يأمر موسى أن يدخل يده من جيب القميص ثم يخرجها، وساعة يخرجها ستعطى ضوءا وبريقا ولمعانا، وموسى كان لونه مائلا إلى السمرة، ولذلك النبى ﷺ حينما وصف الرسل الذين لقيهم فى المعراج قال: «موسى فرجل آدم أسمر طوال كأنه من رجال شنوءة[١]». ومعنى طوال أى زائد الطول، وأُزْد شنوءة قبيلة معروفة بطول رجالها ولونهم الأسمر[٢].

وفى آية أخرى يقول اللَّه تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]. وهذه لقطات مختلفة حتى تكتمل الصورة.

وإذا كان لون موسى أسمر، فإن بياض يده كان له شعاع وبريق يخطف الأبصار، وأحياناً البياض حين يأتى مع السمرة، قد يكون مرضاً كالبرص مثلاً؛ ولذلك الحق سبحانه حتى يبعد هذا الأمر قال عن يد موسى: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

إذن.. هناك بياض على سمار ولكن بسوء، ومعنى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٣]. أى نريك المعجزات والآيات العجيبة التى عندنا لنثبتك بها حتى تفهم أن الذى أمرك بذلك إله، فإياك أن تخاف أو تهتز. فالحق سبحانه سيرسله إلى فرعون، وسيواجه فى ذلك مشكلات عديدة تحتاج إلى شحنة قوية من اليقين والتثبيت.

۞۞۞

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٣٩٦-٣٤٣٧] ومسلم [١٦٨/ ٢٧٢] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه.
(٢) انظر فتح البارى [٦/ ٤٢٩] سلفيه.

ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨]. كلمة: «نزع» تدل على أنه إخراج بعنف وبعسر؛ لأن الشىء السهل لا يقال نزعته، ولكن يقال خلعته، إنما النزع يدل على مقاومة، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ يدل على أن يده كان لها وضع خاص، وكانت فى مكان هو حريص على وجودها فيه، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢] وهكذا أوضحت لنا هذه الآية الصورة.

ففى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ لم يبين لنا أنه أدخلها ثم نزعها، ولكن فى الآية الأخرى بين الإدخال والنزع، وفى آية ثالثة قال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أى إلى جيبك، والجيب هو مكان دخول الرأس من الثوب، ولكن الجيب الآن هو أى شىء نجعله لما نحب، ولقد كان الناس فى الماضى الطريق الوحيد إلى جيوبهم من فتحة الرقبة فى الثوب وقد كان الجيب هو الشىء الذى توضع فيه الأشياء الثمينة، ولابد أن يكون فى الموقع الأمامى من الثوب حتى يكون الشىء النفيس أمام نظر الشخص، وأن يكون مكان هذا الجيب تحت الإبط حتى يكون أمامه وتحت يده.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾، إذن.. حدث إدخال وإخراج، بينما فى الآية الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وفى آية أخرى قال: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، إذن.. هناك ثلاث حالات: إدخال اليد فى الجيب، وضمها إلى الجناح، ونزعها إلى الخارج، وكل آية من الآيات الثلاث جاءت بلقطة، فإن أخذناها معا أعطتنا الصورة الكاملة.

لذلك إن كل من يقول: إن قصص القرآن فيه تكرار.. نقول له: لا، إنه متكامل كل آية تأتينا بلقطة لتتكامل القصة، على أننا يجب أن نفطن إلى أن هناك صراعاً نشأ بين فرعون وموسى، والصراع لا ينشأ إلا عن عداوة، ولكى يحتدم الصراع لابد أن تكون هناك عداوة متبادلة.

ما هو الإعجاز فى بياض اليد؟ الإعجاز هنا لكى يقع لابد أن يكون موسى أسمر اللون، وبذلك يكون البياض فى يده مخالفاً للون جسمه، ولكن قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أى بياضها ليس مجرد اختلاف فى اللون، ولكنه يلفت أنظار الموجودين، إذن.. فلابد أن تكون يد موسى بيضاء، بحيث أن الضوء الصادر منها يجذب أنظار كل الموجودين فى المكان، ولكن بعض الناس قد يقول: إن يد

موسى ابيضّت بسبب مرض أصابه، كأن يكون مصاباً بداء البرص مثلاً فتبيض يده، حتى هذا الظن لم يدعه اللّه سبحانه وتعالى بل أوضحه، فقال فى آية أخرى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فكأن كل لقطة تعطينا استكمالا لما حدث، وتكون فى هذه الحالة بيضاء للناظرين، تدل على أن ضوء يد موسى لامع مضيء يلفت نظر الناس كلهم، ولا يلفت نظر واحد أو اثنين من الموجودين فحسب؛ بل يلفت نظر الموجودين جميعاً، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان ليد موسى عليه السلام بريق ولمعان وسطوع، وكما عرفنا فإن هذا البياض من غير سوء.

❁❁❁

قيام موسى بدعوة فرعون لإخلاء سبيل بنى إسرائيل

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء].

و ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم فجعلوا للّه ندا وشريكاً، والشرك ظلم عظيم. و ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم: قوم فرعون، قال لهم موسى: ألا تتقون ربكم لأن هناك طلبا يكون بالأمر فيقول لك: افعل كذا، ومرة يتحنن إليك فيقول لك: ألا تفعل كذا، فهنا يقول: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أى: يتقون اللّه فى ظلمهم لأنفسهم، باتخاذهم فرعون إلهاً من دون اللّه، وظلمهم بنى إسرائيل بأنهم كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، أى يذبحون المواليد الذكور فقط دون الإناث، ولا شك أن قوم فرعون سبب فى تجبره وادعائه الألوهية لأنهم لم يتصدوا له وأطاعوه، فلو أنه حينما ادعى الألوهية وجد معارضة من قومه، لاستحى وما تجرأ وزعم أنه إله. ولكنهم وافقوه وأطاعوه، فهم شركاء فى الجريمة، ولذلك فى اللغة هناك طاغية وطاغوت؛ فالطاغوت: هو الذى يعينه الناس على أن يكون طاغوتاً.

موسى عليه السلام لم يأخذ الأمر من اللّه تعالى وينصرف لتنفيذه، ولكن لأنه يعرف مشقة المهمة التى كُلِّف بها، وأنه عايش فرعون ويعرف مدى ظلمه وجبروته، فقال مناجيا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء]، فهذا رجل ادعى الألوهية، ومن الصعب أن يستجيب لرسول يدعوه من القوم الذين يستعبدهم هو، فخاف موسى أن يكذبوه، وساعة يكذبونه سيضيق صدره لأنه سيشاهد باطلاً يجابه حقاً واضحاً، وإذا ضاق الصدر تلجلج اللسان فلا يستطيع أن يتكلم الكلام المقنع؛

لأن الغضب يجعله لا يعرف أن يرتب كلامه أو أفكاره، فلا يحسن التعبير عما يريد؛ ولذلك طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليعينه فى هذه المهمة الشاقة، حتى يساعده فى توصيل الدعوة إلى فرعون وقومه.

كما أن المسألة ليست عادية بين موسى وبين فرعون وقومه؛ لأن لهم ثأراً قديماً عنده، لأنه قتل منهم واحداً مع أنه لم يكن يقصد قتله، فهو يخاف أن يقتلوه بسببه، ولكن اللَّه أخبره بأن هذا لن يحدث. ولذلك قال تعالى:

﴿ كَلَّا ﴾ [الشعراء: ١٥] و ﴿ كَلَّا ﴾ حين ترد تنفى ما قبلها، وما قبلها هنا ثلاثة أشياء: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ فـ ﴿ كَلَّا ﴾ هنا منصبة على نفى ما يكون من موسى مثل ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، لكن التكذيب ليس منه وهم سيكذبونه فعلاً فـ ﴿ كَلَّا ﴾ هناك لا تنفى التكذيب الذى سيحدث منهم لموسى عليه السلام.

و ﴿ كَلَّا ﴾ هنا نفت تخوف موسى فى قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ فقال له ربه: ﴿ كَلَّا ﴾ أى اطمئن إن هذه الأشياء لن تحدث، وكلمة: ﴿ كَلَّا ﴾ لها شأن مع موسى، فاللَّه علّمها له وهو حفظها، ولذلك حينما خرج موسى عليه السلام من مصر هو وأصحابه واتبعه فرعون بجنوده، ورأى أصحاب موسى فرعون وجنوده من خلفهم والبحر أمامهم فخافوا وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فقال لهم موسى بإيمان الواثق من نصر ربه: ﴿ كَلَّا ﴾ أى أن هذا لن يحدث، وهذا ليس بقوته هو، ولكن بقوة اللَّه الذى أرسله؛ لذلك قال: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

هنا الحق سبحانه يقول: ﴿ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أى فاذهبا بالمعجزات الدالة على أن موسى رسول صادق من عند اللَّه، وأنه جاء بمعجزة وهذه الآيات هى العصا، وبياض اليد من غير سوء حين يخرجها من جيبه.

وقول اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]، وفى آية أخرى قال: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط فى أول لقاء، وقد يكون من السمع والعين بعد ذلك، ثم يقول تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء] هنا لم يقل: «إنا رسولا رب العالمين» لأن الرسول هو الواسطة من المرسل إلى المرسل إليه، فإن كان واحداً يصح وإن كانا اثنين أو ثلاثة فهم رسول أيضاً، وهما حين يلتقيان

بفرعون، لن يتكلم الاثنان فى نفس واحد، ويقولا: «إنا رسولا رب العالمين» ولكن سيتكلم أحدهما ويؤمِّن الثانى على كلامه أو يسكت، فسكوته أو تأمينه كأنه قال، ولذلك حينما دعا موسى على فرعون وقومه قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وقال له ربه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] يقصد دعوة موسى وهارون لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والمؤمن أحد الداعيين، ولكن ما هو طلب موسى من فرعون؟

الأصل فى رسالة موسى أنه لم يأت لدعوة فرعون إلى الإيمان باللّه، ولكنه جاء ليخلص بنى إسرائيل من العذاب ثم يلتفت إليهم ليعطيهم المنهج، لكن الكلام فى الإيمان والحوار مع فرعون عن الألوهية جاء تبعاً للقصة فموسى جاء لإنقاذ بنى إسرائيل؛ ولذلك يقول اللّه تعالى فى آية أخرى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] فتنوع الأساليب فى القرآن يشرح لقطات فيها تكرار المعنى الإجمالى.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. علة الذهاب أن فرعون طغى، والطغيان هو مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد هى أن تأخذ ما ليس لك، وتبالغ فى أخذ ما ليس من حقك، وفرعون لم يعتد على حق من حقوق بشر مثله، ولكنه اعتدى على حق من حقوق اللّه بادّعائه الألوهية، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له فى مصر قبل سفره إلى مدين، حينما وكز الرجل فقتله، وتآمر عليه القوم ليقتلوه، وخرج هارباً يترقب، وتذكر أن فرعون هو الذى ربّاه، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث. خواطر كثيرة جالت فى ذهن موسى فى هذه اللحظة، وشعر أن العبء أصبح ثقيلاً عليه، فقال: يا رب أوامرك نافذة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من اللّه أن يعينه بها، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه]. فطلب من اللّه أن يشرح له صدره، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع قوتك، ولكن إذا أقدمت منشرح الصدر تكون مجتمع القوى.

فالإنسان حين يقابل الأحداث بانقباض الصدر يُعينها على نفسه، دون أن يعلم أن المهمة الصعبة تحتاج إلى شرح صدر زائد؛ لأنك لابد أن تواجهها بانشراح

أكبر يناسب المجهود، كما طلب موسى من اللَّه أيضاً أن يُيسر له أمر هذه المهمة؛ لأن شرح الصدر أمر من جهة الفعل، وتيسير الأمر يتعلق بجهة المقابل، ولأن موسى سوف يقوم بتبليغ رسالة، وهذا يحتاج إلى منطق، وكان منطقه فيه لثغة أو حبسة فى لسانه، وكذلك الحسين بن علىّ رضى اللَّه تعالى عنهما كان فى لسانه لثغة أو حبسة خفيفة فى الكلام، فكان النبى ﷺ حين يراه يضحك ويقول: «ورثها عن عمه موسى».

طلب موسى من ربه أن يشرح صدره لهذه المهمة، وأن ييسر له الأمر حتى لا يتعبه القوم الذين سيدعوهم - فرعون وقومه - . وحتى يستطيع أن يتكلم بسهولة فدعا ربه أن يحل عقدة من لسانه، ولم يطلب من ربه أن يحل عقد لسانه كلها؛ حتى لا يكون متمرداً على قدر اللَّه فى جعل لسانه محبوساً بعض الشىء، ولكن هذا مجرد لطف فى قدر اللَّه، والهدف منه أن يفقه المخاطبون قوله ويفهموه، ومع أن اللَّه اختار موسى فهو لا يطغى بهذا الاختيار لهذه الرسالة؛ بل طلب من اللَّه أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليعينه على هذه المهمة؛ لأنه يريد أن يؤدى الرسالة على أكمل وجه، فالجانب الذى عنده فيه قصور، فأراد أن يكمله بأخيه. وهو بذلك يعطى نموذجاً للبشر، وهو أن الإنسان إذا كُلف بأمر، ثم وجد فى نفسه قلة كفاءة فى بعض النواحى، فعليه أن يستعين بغيره لسد هذا النقص؛ وهذا دليل على إخلاصه لهذه المهمة، ورغبته فى إتمامها على خير وجه.

وبعد ذلك أتى بعلّة هذا الطلب فى أن يكون هارون معه فى هذه المهمة، فقال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤] وهارون بالإضافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا: إنه كانت فيه صفات أخرى حميدة، منها أن موسى كانت فيه حدّة أى أنه سريع الغضب، أما هارون فكان فيه لين وحلم؛ ولذا طلب موسى أن يكون معه؛ ليجبر عقدة لسانه بفصاحته، وليعالج بلينه شدة موسى وحدّته، فيكمل كل منهما الآخر.

والدليل على ذلك أن موسى لما رجع ووجد بنى إسرائيل اتخذوا العجل، غضب وثار وأمسك بهارون وجذبه من لحيته، فهنا ظهرت حدة موسى فماذا قال له هارون؟ قال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤] انظر الرقة واللين فى كلام هارون لأخيه موسى، فالفصاحة تجبر عقدة اللسان، واللين يجبر الشدة والحدة التى كانت فى طبع موسى عليهما السلام.

والشيء الآخر أن موسى كان أسمر اللون وهارون أبيضه، وكان شعر موسى أجعد وهارون شعره سبط ناعم، وكان هارون حسن تقاسيم الوجه وكان موسى أقنى الأنف. ولا شك أن جمال الخلقة أمر ترتاح له الأبصار، فرسول اللَّه ﷺ كان ينزل عليه الوحى فى صورة دحية الكلبى؛ لأن دحية كان جميل الشكل، فكان اللَّه يرسل له جبريل فى صورة دحية الكلبى لكى يؤنسه ويسعده، فهارون كان يتميز بهذه الأشياء، فلم يأخذها موسى على أنها أشياء تميز بها ليحقد عليه، ولكنه أخذها على أن أخاه تميز بها ليكمل نقصه هو. وهذه هى النظرة التى يجب أن تكون فى الناس، فإذا كان إنسان فيه خصلة طيبة فعلى غيره أن يفرح به؛ لأنك إذا ما رأيت كمالاً فى غيرك فاعلم أن هذا فى صالحك أنت.

وكلمة: «وزير» مأخوذة من الوَزَر وهو الملجأ الذى يلجأ إليه الناس، مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة]. لأن الإنسان لا يقدر على أعباء العمل بمفرده فيأتى بوزير ليعينه، ولكن هذا الوزير الذى يأتى به ليعينه فيكتشف أنه ليس معيناً له، وإنما هو وزر عليه. فالوزير إن كان ناصحاً أميناً يكون بحق حصناً وملجأً، وإن كان غير ذلك فاستغل الوزارة لتحقيق المكاسب الشخصية له ولأقاربه، فهذا لا يكون وزيراً، ولكنه يكون وزراً؛ لذلك فالرسول ﷺ يقول: «إذا أراد اللَّه بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه[١]» وقال فى حديث آخر «ما بعث اللَّه من نبى ولا كان بعده من خليفه إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانه لا تألوه خبالاً فمن وقى بطانة السوء فقد وقى»[٢].

فى المقابل انظر إلى سياسة البشر، فمثلا أنوشروان قال: إياكم أن تفهموا أن أحداً يستغنى عن أحد، فكل واحد له مهمة، فأنت إن زدت فى شيء فقد نقصت فى أشياء، هذه الأشياء قد وضعها اللَّه فى غيرك حتى تكملك، وأنت تكمل غيرك، فالمعايشة مشتركة، ولكن الضرورة تفرضها وليس التفضل.

ومعنى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] أى مأموناً علىّ. والإزر: هو القوة. ولهذا تجد أنهما حينما يذهبان إلى فرعون، رغم أن المتحدث هو موسى، إلا أنه

---

(١) رواه أبو داود [٢٩٣٢] وصححه الألبانى [٢٥٤٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنها.
(٢) رواه النسائى فى الكبرى [٧٨٢٦] وصححه الألبانى فى صحيح الجامع [٥٥٨٠].

تكلم بلسان الاثنين فقال: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فالشيء الذى يتحدث فيه موسى هو عن نفسه وعن هارون؛ ولذلك لما دعا موسى على فرعون وقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] أجابه الحق سبحانه بقوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨] مع أن موسى هو الذى دعا، لأن موسى كان يدعو وهارون يقول آمين، والمؤمِّن أحد الداعيين. وموسى حينما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه؛ حيث يكمل كل منهما الآخر، وأراد أيضاً ألا يبدد طاقته كلها فى الدعوة، وأن يبقى شيئاً منها لعبادة اللَّه وذكره وتسبيحه، فقال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ يعنى أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قِبل اللَّه تعالى؛ حتى لا يكون تفضلاً من موسى عليه.

ومعنى: ﴿نُّسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾، التسبيح: التقديس.. تقديس اللَّه ذاتاً وصفاتا وأفعالاً. فمن ناحية الذات ليس هناك ذات مثل ذاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ومن جهة الأفعال ليس هناك فعل مثل فعله، فإذا قال اللَّه: فعلتُ، فلا تقل: لماذا فعل؟ لأنه مقدس فى فعله أيضاً، وفى الصفات أيضاً تعرف أن اللَّه سميع، ولكن إياك أن تظن أن سمعَهُ مثل سمعك، فهو سبحانه مقدس، أى منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله. ومعنى ﴿نُّسَبِّحَكَ﴾ أى نقدسك تقديس الألوهية الذى أنت فيه، فلا نأتى لك بشىء من اختلاقنا، ونسبحك ليس تسبيحاً قليلاً ولكن تسبيحاً كثيراً، فكان التسبيح من المسبح يورثه لذة فى نفسه؛ والطاعة من الطائع تورثه لذة فى نفسه، لذلك قال النبى ﷺ: «وجُعلت قرة عينى فى الصلاة[1]»، وحينما كان يحزبه أى أمر كان يقوم إلى الصلاة. ومعنى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: إنك قيوم علينا، ترى وتسمع ما نقوم به من عمل وعلم نيتنا فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] بعض المستشرقين يشككون ويقولون: كيف يأتى لفظ رسول مرة مثنى ومرة مفردًا؟

والجواب: أنهم لم يفطنوا إلى شىء هام، هو وحدة رسالة موسى وهارون،

---

(١) جزء من حديث رواه النسائى فى المجتبى [٧/ ٦١-٦٢] وأحمد فى المسند [٣/ ١٢٨] وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٣٦٨٠-٣٦٨١].

لأن كلاً منهما لم يأت برسالة منفصلة، بل جاء الاثنان برسالة واحدة؛ ولذلك فإن كان الرسول ليس واحدا بل اثنين، فإن الرسالة لم تتعدد بل جاءا برسالة واحدة ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿رَسُولُ﴾ بالمفرد إشارة إلى وحدة الرسالة، وأنها ليست بتعاقب الرسل ولكنها رسالة واحدة وإن كُلِّف بها رسولان، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس: ٧٥] الملأ هم أشراف القوم وأعيانه والمقربون لصاحب السيادة والسلطان، هؤلاء اسمهم الملأ، وذلك لأنهم هم الذين يملأون العين؛ لأن العين إذا اتجهت إليهم تتعلق بهم لوجاهتهم وسلطانهم ولا تنظر إلى سواهم؛ وذلك لما لهم من مهابة وإجلال دنيوى، فالعيون تتعلق دائماً بالسلطان أو الرئيس إذا جاء إلى أى مكان وبمن حوله من المقربين.

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لأن الملأ هم الذين جعلوا فرعون يطغى وهم الذين ساعدوه وأعانوه على ادِّعاء الألوهية ويدعون له بكل مبادئه، ويحيطونه بهالة قدسية؛ ولذلك فإن الطاغية لا يطغى إلا بمن حوله، يزينون له الباطل ويعينونه على الفساد، ولو وجد أشخاصاً يقفون ضده ويقاومونه لما طغى وتجبر، ولكنه يجد الملأ حوله كلهم يعينونه على الباطل ويملأون حياته نفاقا ورياء.

إذن.. فهو بهم فرعون وبدونهم لا شىء، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآيات هى المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون، وعلى صدق المنهج الذى يحملانه من الخالق الأعلى، ولكن هل هذه الآيات استطاعت أن تقنع فرعون وملأه؟ طبعاً لا؛ لأنهم يريدون نفوذ الدنيا ولا يبحثون عن الحق.

❁❁❁

المواجهة بين موسى وفرعون

لما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل قال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] أى أنا الذى ربيتك وأنت صغير، ورعيتك حتى صرت شابًا قويًا، والعلماء يقولون: إن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يتركه، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين، ففرعون رباه ولبث عنده سنين، وهنا فرعون يذكره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى: ﴿وَأَنتَ مِنَ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إما من الكافرين بألوهية فرعون أو الكافرين بنعمنا عليك لأننا ربيناك وأكرمناك، والعقلاء يقولون: إن الحق سبحانه وتعالى حين يوفقك فى تربية الأبناء، عليك أن تفهم أن هذه عناية من اللّه؛ بدليل أن الأب يكون واحدًا، والأم واحدة والبيئة واحدة والمنزلة واحدة ويخرج الأخوان كل منهما له سلوك مختلف واتجاه معاكس للآخر، فهذا دليل على أن هناك عناية إلهية أعلى من عناية الوالدين بأولادهما، هنا فرعون يعدد ما فعله من أجل موسى فقد رباه صغيرًا ولبث عنده سنين عدة، وهو هنا يسوق الأدلة التى تكشفه وتفضح ادعاءه الألوهية، فلو كان إلهًا لعرف أن هذا الغلام الذى رباه فى بيته، وعطف عليه وأراد أن يتخذه ولدا؛ سيكون هلاكه على يديه.

والفعلة التى فعلها موسى هى قتل الإسرائيلى حينما ضربه بيده فقضى عليه مع أنه لم يكن يقصد قتله، فرد عليه موسى ليبرىء نفسه: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء] أى أننى لا أنكر أننى قتلت، ولكن كنت جاهلاً بما سيترتب على هذه العملية، وما كنت أعتقد أبدًا أن وكزة كهذه ستميت أحدًا، فكلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى؛ ولذلك يقول ربنا لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق؛ لأنه لم يكن عنده منهج من اللّه وتركه إلى غيره، لم يحدث هذا.

فموسى فرّ من مصر خشية القتل، خاصة بعد أن سمع عن تآمر القوم عليه، كما فى قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ومعنى ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها؛ لأننى خرجت مظلومًا ولم أقصد قتل الرجل، فأعطانى ربى من الحكمة؛ حتى لا أضع الشىء إلا فى محله، بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أى هل تمن علىّ بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية، هل هذه الحسنة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ومعنى: ﴿عَبَّدتَّ﴾ أى جعلتهم عبيدًا.

ثم يقول تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] أى من رب العالمين الذى تتحدث عنه ؟ فرد موسى ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم

﴿مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] أى ربى هو رب هذه السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج، ورب هذه الأرض بما فيها من زروع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون.

موسى ردّ على فرعون بشىء ثبت فى الكون قبل وجوده، فما الذى زدته أنت فى الكون يا من تدّعى الألوهية، ثم تلطف معه فى الحوار فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى إن كتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد.

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى فـ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فرعون قال ذلك؛ لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية، وينسبها إلى من خلق السموات والأرض، أن يهبّوا للرد علىٰ موسى؛ لأنه حقّر إلٰههم، ونفى عنه ما يدعى، فقال لهم مستنكرًا سكوتهم: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أى أما سمعتم ما قاله لى؟ فلماذا تسكتون ؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب فى ادعائه الألوهية، ويتمنون فى قرارة أنفسهم أن ينصر اللّٰه موسى عليه؛ حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه.

موسى سارع فى بسط حجته، قبل أن يتدخل أحد من القوم فى الحوار، فـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت.

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] هذا الأسلوب يفضح فرعون، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل، وما دام مرسلا فلا بد أن هناك من أرسله وهو اللّٰه، فكلامه شهادة ضده مع أنه لم يستطع أن يرد على كلام موسى، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبأ بقوله ومضى فى عرض دعوته، و ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] أى أن ربى هو رب المشرق والمغرب وما بينهما، إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور.

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يردّ بها عليه، هدّده بالسجن شأن كل حاكم طاغية لا يتفاهم، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وهذا إفلاس فى الحجة، فكونك تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجن، فأنت لم تقوَ على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة.

حين سأل فرعون موسى قائلاً ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ قال له موسى ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فهذا دليل البدء، وهذه هى المهمة الأساسية؛ لأن فرعون الذى ادعى الألوهية، وأى إله لابد أن يكون هناك مألوه له، والمألوه هنا خلق مثل فرعون، والذى يعتز به هو الملك والأرض، والنيل، والخيرات؛ حيث قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] فالحق سبحانه يريد أن يردّ عليه ويبيِّن له أن هذه النعم التى ادعى بها الألوهية، ليس له صلة بخلقها وإيجادها، كما أنه لم يخلق البشر الذى يريد أن يتأله عليهم فرده الحق سبحانه إلى قضية الخلق الأولى.

فإذا قيل لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] ثم هداه إلى أن يرتقى، وينتفع بما أعطى، لا فرعون، ولا غيره يستطيع أن يناقش فى هذا الأمر؛ ولذلك فرعون نقل النقاش من هذه القضية الجوهرية إلى قضية تافهة، فقال لموسى وهارون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] ذلك لأنه لا يقدر على القضية الأساسية تماماً.

ولكن موسى أغلق أمامه هذا الباب وردّ عليه قائلاً: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أى: أن هذا الشىء علمه ليس عندى أنا، ولكن عند اللّه الخالق، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] الذى يسأل عن حال القرون الأولى هو الذى يجازيها إن كانت مؤمنة أو كافرة، ففرعون لماذا يسأل؟ هل هو سيجازى هؤلاء الناس السابقين ؟ طبعاً لا، إذن فالسؤال هروب من جدل الجد إلى مهاترة الهزل، فقطع موسى عليه هذا الطريق، وقال له: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، فهو الذى سيجازى ومادام هو الذى سيجازى، فهو الذى يعرف، وأن ربى لا يضل ولا ينسى.

بعد ذلك دخل معه فى قضية أخرى تفصيلية لما سبق أن حدّثه فيه فأوضح له أن ربه الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى هو الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه] كلمة «مهد» إذا سمعتها اعلم أن هناك تمهيداً ومعنى التمهيد توطئة كل شىء لصلاحية ما هو عليه.

فالحق سبحانه جعل لنا الأرض مهدا؛ لتصلح حياتنا عليها، ومعنى مهدها أى سوّاها لمهمتها، وليس المقصود أنه جعلها مستوية؛ لأنه جعل فيها الجبال والوديان والأنهار؛ حتى تكون صالحة لمهمتها، فالسالك فى الصحراء مثلاً يسلك طريقاً متعرجاً وهذا أفضل له؛ لأنه لو كان طريقاً مستقيماً إن واجه الشمس يظل

طريقه فى شمس دائماً، ولكن إن كان متعرجاً يسير بعض الوقت فى الظل، فهذا الالتواء مقصود، فإياك أن تظن أنها مستوية أى ليس فيها عوج؛ لأن كل شىء له مهمة مثل قضيب الحديد الذى عوجناه؛ لنجعله خطافًا فنحن لم نعوجه، ولكننا عدلناه لمهمته، إذن معنى التسوية هنا هو جعل الشىء صالحاً لمهمته، سواء كان بالاعتدال أو بالاعوجاج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه] هذا أيضا فى عملية الخلق التى لا يستطيع أحد أن يدّعيها؛ لأن هذه دعوى ترد على مدّعيها؛ لأنه لايستطيع أحد أن يفعل شيئاً منها فهنا إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه، لكن إخراج النبات قد يكون لنا عمل فيه، فنحن نحرث ونبذر البذور ونرويها بالماء ونتعهدها بالسماد والرى؛ فهذا كله عمل منا مع أنه عمل بأسباب مخلوقة خلقها اللّه سبحانه وتعالى.

وموسى عليه السلام فى حواره مع فرعون يعرض قضايا ليست لفرعون فقط، ولكنه يعرضها حتى لا يجىء فرعون آخر ويدّعى ما ليس له بحق.

اتهام موسى عليه السلام بالسحر

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ ذلك لأن السحر كان موجوداً عند الفراعنة، وكان الكهنة مشهورين بالسحر؛ ولذلك فهم ظنوا أن معجزات موسى سحر، واعتقدوا أنه لا يغيّر طبيعة الأشياء، ولكن يسحر أعينهم، فيخيل إليهم أنها قد تغيرت؛ ولذلك فإن موسى عندما اتهموا المعجزات التى جاء بها بأنها سحر، قال كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]؛ أى أن موسى عليه السلام قال لهم: أنتم لا تفرقون بين الحق والباطل، إن ما أرسلنى به اللّه من معجزات هو الحق، أتقولون عليه سحر؟

بعض الذين يتطاولون على القرآن يقولون: إن الكلام جاء على لسان موسى وكأن موسى قد قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ ولكنها جاءت بأسلوب الاستفهام ولم تأت بأسلوب الاستفهام الإنكارى، نقول له: إذا أردت أن تؤكد شيئاً يصح أن تأتى بجملة خبرية منك. هم قالوا: إن هذا لسحر مبين، وكان المفترض أن يقول موسى: لا ليس هذا بسحر. ولكنه قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ تماماً كما تأتى لإنسان

وأنت واثق من قضيتك وتقول له: أنا أرضى ذمتك هل هذا سحر؟ حينئذ لا يمكن إلا أن يقول: هذا ليس بسحر تماما. كما تذهب لتشترى قطعة من القماش الصوف ثم تشعل عود ثقاب وتقربه من فتلة من الصوف فتحترق، فتقول له: أهذا صوف يا رجل؟ فيقول: هذا ليس صوفاً، إذن.. فإذا طرحت الأمر على الاستفهام الإنكارى يكون أبلغ من أن تقوله على أنه خبر.

وقال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم؟ أى: لا تحكموا على الحق بأن الذى جاء به هو موسى من عنده، ولكن انظروا إذا كان الذى جاءكم حقا أم لا. اللَّه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أى أن هذا لو كان سحرا فإنه لن يفلح ولن يستمر. ولقد قلنا: إن المعجزة التى يأتى بها اللَّه سبحانه وتعالى على يد رسول من الرسل ليثبت صدقه فى البلاغ عن اللَّه، لابد أن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم؛ لأنه لو أتاهم بمعجزة فيما لم ينبغوا فيه لقالوا لو تعلمنا هذا الفن أو هذا الشىء لجئنا بمثل هذه المعجزة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾؛ فالفلاح هو الوصول إلى الثمرة والثمرة لا تأتى إلا بعد مجهود حرث وبذر وريّ، ثم تأتى الثمرة، ومنه فَلَحَ الحديد: أى شقّه، لأن الحديد ككتل أو قطع لا يصلح لشىء إلا إذا شُكِّل التشكيل المناسب لاستعماله، والسحر ليس حقيقة ولكنه تخيل، واللَّه سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى ذلك فقال: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾، وقال جل جلاله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. إذن.. فالسحر فى طبيعته لا يغير طبيعة الأشياء ولكنه يسحر أعين الناس فترى غير الحقيقة؛ ولذلك عندما أتى فرعون بالسحرة أو بأمهر السحرة، جمعوا حبالهم وعصيّهم وألقوها وخُيل للناس أنها تسعى، وعندما ألقى موسى العصا فإذا هى تلقف ما صنعوا، حينئذ خرَّ السحرة سجّداً.. لماذا؟ لأن العصى والحبال التى ألقوها خُيل للناس أنها تسعى ولكنها كانت أمامهم حبالاً وعصياً، لأن أحدًا لم يسحر عيون السحرة ولكن السحرة سحروا أعين الناس، فكانت الحبال والعصىّ أمام الناس كأنها ثعابين ضخمة تسعى، أما فى أعين السحرة فهى حبال وعصى؛ ولذلك لما ألقى موسى عصاه ورآها السحرة حية تلقف حبالهم وعصيهم، قالوا: هذا ليس من فعل موسى، بل من فعل رب موسى. وأدركوا أن هذه معجزة، وليست سحراً ولا يمكن أن يأتى بها موسى، فآمنوا برسالته وسجدوا للَّه الذى أعطى موسى هذه المعجزة.

وبعد ذلك انتقل فرعون إلى قضية أخرى فقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه]؛ أراد فرعون أن يستعدى الناس الذين استعبدهم ونصب نفسه إلها عليهم، على موسى وهارون فقال لهم: إن موسى قد جاء ليخرجكم من أرضكم. وبذلك يستعدى القوم عليهم حتى لا يستجيبوا لهما ويقفوا ضدهما؛ لأنهم يخشون أن يخرجاهم من هذه الأرض التى يعيشون على خيرها حول النيل فأخبرهم أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم بسحره.

فحوّل المسألة التى بينه وبين موسى وهارون، إلى مواجهة بين موسى وهارون من جانب والرعية من جانب آخر، وذلك لأنه رأى أن الكلام الذى قاله موسى وهارون من الجائز أن يدخل على عقول الرعية فتفهمه وتؤمن به، فتتمرد على فرعون وتثور عليه، فأراد أن يزرع فى قلوبهم عداوة موسى وكراهيته حتى لا يستجيبوا له، فقال: لقد جئتنا يا موسى لكى تخرجنا من أرضنا بسحرك ونحن سنأتى لك بسحر مثله. هنا فرعون سمى معجزة موسى سحرًا وهذه تسمية خاطئة لأن الذى مع موسى ليس سحرًا وإن كان الذى عند قوم فرعون هو السحر، والفرق بين الاثنين: أن السحر لا يقلب حقيقة الشىء، بل يظل الشىء على حقيقته، ولكن السحر يكون للرائى؛ ولذلك ربنا سبحانه قال فى الآية الكريمة: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فحبالهم وعصيهم تظل كما هى فيراها الساحر حبالاً وعصيًا لم تتغير، بينما يراها المسحور ثعابين وحيات. لكن معجزة موسى غير ذلك، بدليل أنها لو كانت مثلها لم يكن موسى ليخاف وهذا دليل. عند الساحر تظل الحبال كما هى يراها حبالاً، وإن كان المسحور يراها كأنها حيات.

فرعون طلب من موسى أن يضرب لهم موعداً يجتمع فيه السحرة ليقاوموا سحره فقال: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ الموعد هو الميعاد يتفق عليه الطرفان حتى لا يخلفه أحد منهما؛ ومعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أى مكاناً مستوياً؛ لأنه سيكون مشهدًا يراه الناس، فلابد أن يكون مكاناً مستوياً حتى يتمكن الجميع من الرؤية بسهولة، أو أن المعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، أى سواء بالنسبة لنا ولك، أى نختاره سهلاً على الناس وعلينا وعليك. مثلما نقول: هيا نتقابل فى منتصف الطريق، فلا يكون فى ذلك تعب لنا ولا تعب لك.

موسى قال له: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] إن كل حدث يتطلب مُحدِثاً له ومُوقَعًا عليه الحدث، فالحدث يتطلب زماناً ومكاناً، فلا حدث بغير زمان أو مكان، فبعد أن تم تحديد المكان، كان الزمان هو ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾. إذن

عناصر الحدث اكتملت زماناً ومكاناً. ويوم الزينة هو اليوم الذى كان يجتمع فيه كل سكان مصر، ويبدو أنه كان يوم وفاء النيل، وسُمِّي ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ لأن الناس كانوا يحتفلون فيه بأغلى شيء عندهم وهو النيل، فيلبسون أفخر ما عندهم من ثياب ويخرجون فى موكب الاحتفال.

وموسى اختار يوم الزينة تحديدًا؛ لأنه اليوم الذى يجتمع فيه كل الناس؛ لأنه واثق تمام الثقة من أن ربه سينصره، ويريد أن تكون فضيحة فرعون أمام الناس جميعا.

❁❁❁

اتهام موسى عليه السلام بالإفساد فى الأرض!

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ هذا الخطاب من الملأ يدل على أن فرعون لم يتعرض لموسى، حينما أمر بصلب السحرة؛ ذلك لأن رهبة الحق واليقين فيما رآه من معجزة موسى، كانت تملأ قلبه فتجعله لا يقترب منه. ففرعون قد علم ورأى أن السحرة كذَّابون، وأن موسى على حق، وانهدمت ألوهية فرعون أمام الحاضرين؛ ولذلك كان فرعون فى موقف ارتباك. وهنا أراد أن ينبه الحاضرين إلى أنه لم يفعل شيئاً بالنسبة لموسى وهارون، وأنهما تركا المكان دون أن يصابا بسوء فتساءل الملأ: أتترك موسى ومن اتبعوه ليفسدوا فى الأرض ؟ كأنهم قد وصفوا منهج الحق بأنه إفساد.. لماذا؟ لأنه يأخذ منهم جاههم وسلطانهم ونفوذهم؛ ولذلك فهو فى رأيهم يقول الحق: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وهنا نلاحظ كلمة: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾. ألم يكن فرعون يدّعى الألوهية؟ نعم. كان يدعى الألوهية فى الأرض، ويقول: إن هناك آلهة للسماء، وإن كانت بعض التفاسير تقول: إن آلهتك معناها ألوهيتك.

بماذا أجاب فرعون؟ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ نلاحظ هنا أن فرعون لم يتعرض لموسى، وفى ذلك تقول بعض التفاسير: إن الحيَّة التى ظهرت حينما ألقى موسى عصاه اتجهت إلى فرعون وفتحت فمها حتى ظهرت أنيابها، وإن هذا جعل فرعون يخشى موسى ولا يقترب منه.

وقول فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾؛ يريد أن يعطى الحجة أمام ملئه أنه ترك موسى. فالقوى حين يهاجمه شخص ضعيف فإنه لا يقضى عليه ويتركه، مؤكداً أنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة؛ لأنه يملك القهر الذى يجعله

يأتى به. وقتل فرعون للرجال واستحياؤه للنساء إذلال لقوم موسى.

ولما ذهب قوم موسى إليه يشكون الذلّ الذى يعانونه؛ فما كان من موسى إلا أن قال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ يريد موسى أن يسرّى عن قومه العذاب الذى هم فيه، ويذكرهم بأن النصر للمتقين المؤمنين، وقول موسى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ معناه أنه إذا كان قوم فرعون قاهرين مستعلين مسيطرين، فاستعينوا بالله الذى هو أقوى منهم. ونحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمنّ على بنى إسرائيل ويمكّنهم ويجعلهم الوارثين، ولكن ماذا قال قوم موسى؟ وما موقفهم بعد أن طلب منهم أن يستعينوا بالله: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩] كأنما هم يذكّرونه بأن مجيئه لهم لم يغير شيئًا، فقبل أن يأتى موسى كان الفراعنة يقتلون الأبناء ويستحيون النساء، ولم يغير مجىء موسى شيئاً.

ماذا كان جواب موسى؟ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة «عدو»، فى وصف آل فرعون؟ لأن الإيذاء لا يمكن أن يحدث إلا من عدوٍّ، فالصديقُ يحاول دفع الأذى عن صديقه، أما العدو فهو الذى يدبر الأذى لعدوه.

وقول موسى عليه السلام هو بشارة من الله بأن أسباب الإيذاء بالنسبة لبنى إسرائيل ستنتهى؛ لأنه قد اقترب موعد هلاك آل فرعون، بل إن البشارة لم تقتصر على ذلك، بل امتدت كما فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر كلمة: ﴿عَسَىٰ﴾ فى قوله جل جلاله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ﴾، وكلمة: ﴿عَسَىٰ﴾ تدل على الرجاء أى: ما يأتى بعدها يرجوه الناس، وهى غير التمنى، فالتمنى هو أن تطلب أمرًا مستحيلاً تعرف أنه لن يتحقق. وأداة التمنى «ليت»، بينما أداة الرجاء «عسى».

وموسى رسول مرسل لهداية قومه، مؤيد بمعجزات، وإذا كان هذا هو موقفه فلن يردّ الله له رجاء، ويكون الرجاء منه مقبولاً. إذن فالحديث هنا هو رجاء محقق الوقوع، ولكن نعمة الله على بنى إسرائيل لن تتوقف عند إزالة الضرر عنهم إنما تمتد ليستخلفهم الله فى الأرض تمامًا.

❁❁❁

المؤامرة على موسى

جمع فرعون أعوانه ووجهاء قومه وقال لهم: ﴿... إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء] أراد فرعون أن يُخرج نفسه من هذه الورطة التى أوقع نفسه فيها، فاتهم موسى بأنه ساحر عليم بفنون السحر، خاصة وأن المصريين كان لهم إلف بفنون السحر، فأراد أن يستعدى القوم عليه فاتهمه بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، بعد أن يصبح له أتباع وأنصار، ويحدث انقلاباً ويخرجهم من أرضهم، فهذا استعداء للناس على موسى عليه السلام، والغريب أنه بعد ذلك يستشيرهم فيما يفعله ضد موسى، وهذه ألوهية كاذبة انحدرت إلى مرتبة العبيد؛ لتسألهم عن رأيهم فى هذه المسألة، فنزل من الألوهية التى يدّعيها إلى حاجته إلى مشورة الناس الذين يستعبدهم، ولو كان إلهاً كما يزعم لكان عنده الحل، ولكنه يسألهم عما يأمرونه به، فكان كلامهم بالنسبة له أمراً وليس مشورة فقط، فهل الإله يأمره أحد؟! ولكن القوم وجدوا الفرصة أن يقولوا رأيهم، مما يدل على أن أكثرهم كانوا يضيقون بغطرسة فرعون وتسلطه، فأشاروا عليه بأن يبقيه هو وأخاه وأن يجمع لهما أمهر السحرة ويواجههما بهم، ويرى لمن تكون الغلبة؛ وذلك قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء] و «الإرجاء» هو التأخير، قالوا له: ابعث رسلك ليحشروا الساحرين الموجودين فى طول البلاد وعرضها ويجمعوهم لمقابلة موسى وهارون.

و ﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مدينة، فهؤلاء الناس مهمتهم جمع السحرة من كل مكان، وبعد ذلك تم تجميع السحرة فى المكان المعلوم، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء]. الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه؛ هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة، وهو اليوم الذى يتزين فيه الناس بملابسهم الجديدة، وتتزين فيه الفتيات أبهى زينة؛ لأن عروس النيل ستؤخذ منهن وتلقى فيه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. فهذه الآية حددت اليوم بأنه يوم الزينة والوقت بأنه وقت الضحى، فحدد اليوم وحدد الزمن من اليوم وهو الضحى، ثم تكلم فى آية أخرى عن المكان فقال: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ ومعنى ﴿سُوًى﴾ إما أنه وصف للمكان الذى ستقام فيه المباراة السحرية فى مكان مستوٍ من الأرض؛ حتى يتمكن

كل واحد من رؤية المنظر فهو مكان مستوٍ ليس فيه علو أو انخفاض، أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيداً فى أطرافها؛ حتى يسهل على الناس الحضور إليه، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانب الطرفين؛ لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر.

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس؛ حتى يتجمعوا فى هذا اليوم لمشاهدة ما سيحدث، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء]. أى أنهم سيجتمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويبطلوا حجته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ انظر هنا إلى مسيرة هذا الإله المزعوم فى رعيته!!

إن الإله الحق يُعطى ولا يأخذ، فهو سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه]. ساعة أن خوَّفهم موسى وحذرهم، أخذوا يتناجون مع بعضهم البعض؛ خوفا مما سيحدث لهم، وكلمة: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ دليل على أن خوفهم من قول موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه ٦١]. جعل عندهم شيئًا من الرهبة والتردد والتفكير فى الحق، حتى وإن اقتصر هذا الأمر على الذين كان عندهم استعداد للخير بعد الحوار والجدال بين السحرة، فانتهوا إلى اتفاق على أن يكملوا الشوط إلى آخره.

وهذا القول منهم ترديد لما قاله فرعون عن موسى وهارون، وهو دليل على أن دعاية فرعون وكيده أثرا فى موقف الرعية من قضية موسى وهارون، والطريقة هى المذهب الذى يرتضيه الإنسان لنفسه، والمسلك الذى يسلكه فى حياته، إذن الطريقة: هى ما ارتضاه الإنسان لنفسه؛ لتسير عليه أمور حياته، والطريقة المثلى عندهم هى أنهم جعلوا فرعون إلهاً، يأتمرون بأمره، وهو الذى يتصرف فى شؤونهم ويدبر أمورهم كما يشاء، ومعنى المثلى: أى الفاضلة، ومعناها أمثل طريقة.

ومعنى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ [طه: ٦٤] أى اشحذوا كل أذهانكم وحركتكم فى السحر؛ حتى لا تمكنوهما من تحقيق هذين الهدفين وهما: الإخراج من الأرض والذهاب بالطريقة المثلى.

ومعنى ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾؛ لأن هذا أهيب لكم ويدخل الرعب فى قلب الخصم.
ومعنى كلمة: ﴿أَفْلَحَ﴾ أى فاز.

ومعنى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] أى من طلب العلو على خصمه وتمكن من تحقيق هذا العلو، والذى يريد تحقيق هذا الهدف لابد أن يشحذ ذهنه ويبذل جهده فى طلب هذا العلو.

وعندما ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان، ونزع يده فامتلأت بالضوء الذى يجذب أنظار الحاضرين، هنا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ و ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ وهم: وجهاء القوم المحيطون بالحاكم، وقولهم: «ساحر» معناه أنهم كانت عندهم فكرة عن السحر؛ ولذلك قالوا: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أى أنه ليس ساحراً عادياً ولكنه ساحر متمكن، وفى سورة الشعراء هناك آية أخرى تدل على أن فرعون هو الذى قال: إن موسى ساحر، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]. إذن.. فهناك آية نسبت القول إلى الملأ، وآية نسبت القول إلى فرعون.. فهل هذا تناقض؟ بالطبع لا؛ لأنه من الجائز أن تتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه.

هل أعطى فرعون وملؤه حيثية أو سبباً لمجىء موسى واستعراضه لسحره أمامهم؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف]. كأنما هم أعلنوا أن موسى قد جاء لإخراج فرعون وقومه من الأرض؛ ليعود إليها هو وأتباعه، كما حدث فى أيام الهكسوس.

فرعون فى هذا يريد أن يصرف الناس عن الإيمان، والاقتناع بما قاله موسى عليه السلام من أنه رسول رب العالمين ولذلك فإنه طعن فى معجزة الرسول بأن قال: إنه ساحر، ثم أراد أن يهيج القوم ضد موسى فقال: إنه ساحر جاء ليخرجكم من الأرض التى تعيشون فيها، وبهذا يكون فرعون قد أضاع من عقول الناس أثر المعجزات التى جاء بها موسى وأضاع اللمسة الإيمانية التى يمكن أن يكون حديث موسى ومعجزاته قد أدخلها إلى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يدل على أن الذين قالوا هم الملأ، ولكن الذى يأمر فى هذه المسائل هو فرعون، ولكن من الممكن أن يكون الكلام من فرعون على أساس أنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة وهذا أول ما ينفى عن فرعون تلك الألوهية المزعومة التى ادّعاها، فالإله لا يشاور ولا يتشاور مع عابديه عندما

يقرر أمراً، ولا يوجد إله يستعين بأمر العابدين، وهذه سقطة كان يجب أن يتنبه إليها أولئك الذين عبدوا فرعون؛ ليعرفوا أنه ليس إله وأنه ارتج أمام موسى، واختلط عليه الأمر حتى أصبح لا يستطيع أن يقطع رأياً بدونهم فلجأ إليهم.

بماذا أفتى القوم فرعون؟ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يعنى آخر الحكم عليه، و «الإرجاء» هو التأخير، فالموقف عصيب ومحتاج إلى تمهل وإلى بطء فى اتخاذ القرار حتى لا يضيع كل شىء. ماذا فعل الملأ من آل فرعون؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف]. فكأنهم قالوا: إذا كان موسى ساحراً فعندنا السحرة وهم جمع وهو فرد، فلنرسل فى كل البلاد من يحضر أبرع السحرة منها ليواجهوه، وفى هذا القول هدم آخر لقضية الألوهية بالنسبة لفرعون.

الهدم الأول: هو التشاور وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

والهدم الثانى: هو استعانة فرعون بالسحرة كيف يكون الإله عاجزاً بحيث يستعين بمن يعبدونه لينصروه على عدوه؟!

إذن.. فقد انهدم ركنان من أركان ادّعاء فرعون الألوهية من هول الموقف والارتباك، وكون فرعون سيرسل إلى المدن المختلفة فمعنى ذلك أن السحر كان منتشراً وكان هناك فى كل مدينة سحرة. ففرعون قال لموسى: انتظر، وأرسل الجامعين فجمعوا السحرة، وجاءوا بهم إلى فرعون، وكانت اللقطة الثانية هى عن السحرة وهم موجودون يطلبون منه الأجر إذا غلبوا، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف].

والسحرة حينما جاءوا أمام فرعون انفعل كل واحد منهم وتكلم، ولكن جمع حديثهم على اختلافه أمرٌ واحدٌ هو هل سيعطيهم فرعون أجراً إذا غلبوا موسى؟ والكلام هنا إما أن يكون بصفة استفهام، أى أنهم استفهموا هل سيأخذون أجراً أم لا؟ أو بصفة خبرية أى أنهم يريدون أجراً، والقرآن غطى هذه وغطى هذه، فالذين أخذتهم الشجاعة طالبوا بالأجر، والذين خانتهم الشجاعة جاءوا بها على هيئة استفهام. ماذا قال فرعون عندما تحدث السحرة عن الأجر؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾. ﴿نَعَمۡ﴾: حرف جواب يدل على تقرير ما بعده، إذا سألك أحدهم: أجاءك زيد؟ تقول: نعم، أى:

نعم جاءنى زيد، فالسحرة يقولون: هل لنا أجر إن كنا نحن الغالبين؟ وقول فرعون ﴿نَعَمْ﴾ معناه: لكم أجر إن كنتم غالبين، هذا إذا كانت الجملة استفهامية، أما إذا كانت خبرية فإنها تحتاج أيضاً إلى جواب، وبذلك يكون الجواب قد شمل الحالتين، وقوله: ﴿نَعَمْ﴾ معناها لكم أجر؛ ولذلك جاء ما بعدها معطوفاً بالواو: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ دلت على فساد حكم فرعون؛ لأن المفروض أن يكون كل المحكومين بالنسبة للحاكم سواء، ولكن أن يكون هذا مقرباً وهذا غير مقرب، يكون الناس مصنفين عند الحاكم، وما دام الناس مصنفين وليسوا متساوين عند الحاكم يكون فساد الحكم؛ ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ إذا جلس أصحابه حوله يستمعون إليه سوّى بين الناس جميعاً فى النظر؛ حتى لا يظن إنسان من الصحابة أنه أولى بنظر رسول اللَّه، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع أنه مقرب.

حينما اطمأن السحرة إلى الأجر، واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين، حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى، فقد جاءت لحظة التحدى.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس] موسى عليه السلام أراد أن يرهب السحرة ليضعف معنوياتهم، فلما ألقى السحرة عصيهم قال لهم: إن ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾، وما دام ما جاءوا به سحراً، والسحر تخيل وليس حقيقة، فإن اللَّه سبحانه وتعالى سيبطله؛ لأنه سيغير حقيقة عصا موسى ويجعلها حية حقيقية وليس مجرد تخيل؛ ولأن السحر إفساد فى الأرض فإن اللَّه لا يصلح العمل لمن يريد الإفساد وينصر سبحانه الحق بكلماته. وهو سبحانه وتعالى بمجرد أن يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] بل إنه قبل أن يقول: ﴿كُن﴾ يكون الشىء موجوداً، فأمره بين الكاف والنون ولا ينتظر التنفيذ أن يكتمل الحرفان، وذلك قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢] ليريح العالم من إضلال المجرمين ومفاسدهم.

لما تجمع السحرة فى اليوم المعلوم وبدأت المبارزة طلب موسى منهم أن يُلقوا هم أولاً قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء] فألقوا ما معهم من حبال وعصى، وأقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، وقد خابوا فى القسم؛ لأن العزة معناها أنه لا يُغلب ولا يُقهر، وهذه العزة الفرعونية عزة كاذبة؛ لأنها بلا رصيد.

موسى عليه السلام طلب من السحرة أن يلقوا ما يريدون إلقاءه، الآية هنا

جاءت بالغاية التى انتهى إليها بعد المشاورة بينه وبين السحرة، وإلا فهناك آية أخرى تدل على أن المسألة لم تنته إلا بعد تشاور وحوار، فالآيات لم تأت لتكرر الحدث الواحد؛ وإنما جاءت لتستوعب كل أجزاء الحدث. موسى اتفق معهم أن يلقوا هم أولاً ما معهم من أدوات السحر، قال بعض العلماء: إن الحبال والعصى كانت مجوفة، ووضعوا فيها زئبقا حتى إذا ألقوها فى الشمس تلوَّت كأنها ثعابين وهذا من حِيَل السحرة، لكن السحر هو تخييل للمسحور، فيرى الشىء على غير حقيقته؛ لأن حقيقة الشىء لا تتغير لكن المسحور يرى الحقيقة عن طريق التخيل.

فالسحرة ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلبون، والعزة هى القوة والمنعة والغلبة، ومنها العزة بالإثم وهى أنفة وكبرياء بلا رصيد من الحق.

هناك آيات كثيرة أخرى تعرضت لموضوع السحرة منها قول اللَّه تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه] أى أن السحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم تخيل موسى أنها تسعى فخاف، فأوحى اللَّه إليه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

إذن.. موسى ألقى عصاه بعد وحى من ربه أثناء المعركة، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] كلمة ﴿تَلْقَفُ﴾ معناها: تبتلع بسرعة وبقوة، فالسرعة فى اختصار الزمن ومعها القوة، فجمعت بين السرعة والقوة، «والإفك» هو قلب الحقائق؛ ولذلك سمى الكذب إفكًا؛ لأنه يقلب الحقيقة، فالكذب لا يوافق واقع الأشياء، فالنسبة الكلامية فيه لا تطابق النسبة الواقعية.

❁❁❁

إيمان السحرة.. وعقاب فرعون لهم!

بعد ذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، شىء عجيب، كما قال الزمخشرى: من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود. فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفرة جاحدون، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه، ووجدوا أن العملية ليست من هذا النوع أبداً، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها، وهم لم يروا عصا موسى على

حقيقتها، بل رأوا لها حركة حياة، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر، ولكنه شيء أعلى، وهذا يدل على أن الفطرة الإيمانية فى النفس تطمسها الأهواء، هذه الفطرة التى أخبر عنها رسول اللَّه ﷺ بقوله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة[1]»، فالهوى يطمس على الفطرة الإيمانية، ولكن أحياناً تستيقظ هذه الفطرة، وحين تستيقظ الفطرة الإيمانية، فأقل شيء يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه. والذى يدل على أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة: أنهم سيقولون لفرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] فهذا دليل على أن طبائعهم وفطرتهم كانت تأبى هذا، لكن فرعون هو الذى كان يُكرههم على السحر، وحين يكبر الواحد منهم فى السن يأمره بأن يأخذ مجموعة من الغلمان ليعلمهم السحر؛ لأن هذا يناسب شعوذة فرعون وادّعاءه الألوهية.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾: يدل على أنهم وإن كانوا سحرة إلا أنهم كانوا مقهورين لأوامر الطاغية، لكن إذا خلوا إلى أنفسهم تستيقظ فطرتهم، فإذا جاء شيء يزكّى الفطرة وينمّيها مثل: عصا موسى فلا يملكون إلا التسليم؛ ولذلك: الحق سبحانه حينما تحدث عن إلقائهم للحبال والعصى قال: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فالإلقاء عمل اختيارى منهم، ولكن ساعة رأوا المعجزة واستيقظت عندهم الفطرة الإيمانية، قال الحق سبحانه عنهم: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠]، فهنا الفعل «أُلقىَ» مبنى للمجهول، فكأن نفوسهم من تلقاء نفسها خرّت ساجدة للّه فكأن قوة الحق فاجأت صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين بدون اختيار، وهذا السجود عملية مرئية.

وهناك عملية أخرى قولية هى قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾. إذن هناك منظر رآه الناس وهو: أنهم أُلقوا سجدا، والذى ألقاهم هو قوة الحق؛ لمفاجأته الفطرة فانكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور، وبعد أن سجدوا بدءوا يعلنون رأيهم، حدث هذا منهم جميعاً مرة واحدة، فلم يتباطأ منهم أحد، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين على هذا العمل ومسخّرين لأدائه، ودليل ذلك أنهم فى آية أخرى قالوا لفرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] فكأنهم كانوا مسخرين لأداء هذا العمل لفرعون؛ لتخويف أتباعه أو لاضفاء القوة والمهابة على نفسه، وادّعائه الألوهية أمام رعيته، فكانوا يقومون بهذا العمل لفرعون دون أجر،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٧٧٥] ومسلم [٢٦٥٨/ ٢٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ولكن هذه المرة سألوا فرعون أن يعطيهم أجراً؛ لأن هذه المعركة ليست هيِّنة مثل غيرها، فلما سألوا فرعون هل سيعطيهم أجراً إن استطاعوا أن يغلبوا موسى؟، قال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]؛ أى أنه سيعطيهم الأجر وسيقرّبهم منه وسيكونون هم سدنة الفرعونية، ففرعون أراد بذلك أن يشحذ هممهم، فلا يدخرون وسعا فى فنهم؛ أملا فى أن يستطيعوا هزيمة موسى، ومع أن موسى هو المرسل وهارون هو العَضُد، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾. بعض الناس قد يتساءل، ماذا قال السحرة؟ هل قالوا: آمنا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨]، أم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]؟ ونحن نقول: إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلابد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد، فهل من المعقول أن يتحدوا جميعاً فى الحركة وفى القول، أم أن كل واحد انفعل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة، فبعضهم قال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وبعضهم قال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾؟ فقيلت هذه وهذه، والقرآن عدّد كل هذه اللقطات مجتمعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يتفق هذا العدد الضخم فى الحركة وفى اللفظ. ولذلك نجد الواحد من خصوم الإسلام يقول: القرآن يقول عن السحرة مرة أنهم قالوا كذا، ومرة يقول: إنهم قالوا كذا.. فأيهما قالوا؟ نقول له: هذه جمهرة لا تستطيع أن تحكم أقوالهم، فكل واحد انفعل بما يقول؛ فنحن نستطيع أن نردّ على من يقول: إن القرآن يحكى أقوالاً متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم، فأىّ قول قيل؟ فنقول له: هذه لقطات لمجتمع جماهيرى لا تضبط حركاته، ولا تضبط كلماته، بل كل واحد ينفعل حسب مداركه الإيمانية. فالقرآن عدّد اللقطات؛ ليقصّ كل ما حدث فى القصة.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء] أى نحن لا نخشى الضرر؛ لأننا مهما طال العمر سنموت ونلقى اللَّه، فسواء قتلتنا أو تركتنا لابد من الموت، وإذا متنا على يدك فسنلقى ربنا وتشقى أنت بجزاء ربك؛ ولذلك أحد الطغاة المستبدين هدد خصما له بالقتل، فضحك الخصم، فقال له: أتسخر منى وتضحك ؟ قال له: وكيف لا أضحك لأمر تفعله بى يسعدنى اللَّه به، وتشقى به أنت ؟! فالسحرة لما آمنوا لم يخافوا من تهديد فرعون لهم بالقتل؛ لأنهم إن قتلوا سيرجعون إلى اللَّه وسيخرجون من ألوهية باطلة إلى لقاء ألوهية حقة، فأنت ستعجل لنا بلقاء اللَّه، فالذى تظنه تعذيبًا لنا هو غاية ما نرجوه؛ ولذلك المسلم الذى فهم هذا المعنى قال:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أى شق كان فى اللَّه مصرعى

هم أرادوا أن يقولوا: إن الذى سيفعله بهم فرعون لن يضرهم ولكن سينفعهم؛ لأن هناك شيئًا يمنع الضرر، ولكن لا يجلب نفعًا، مع أن النفع هو نفى الضرر أولا؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. فإن قتلهم فلن يضرهم ذلك بل سيجلب لهم نفعًا، هو لقاء ربهم الذى آمنوا به، عسى أن يغفر لهم خطاياهم لذلك قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن فرعون أكرههم على السحر والكذب على الناس وتضليلهم، وكانوا فى خدمته وطاعته بعد أن أجبرهم على أن ربهم الأعلى، فحينما ثبتت المعجزة لموسى، وآمنوا به، فعسى اللّه أن يغفر لهم؛ لأنهم كانوا أول المؤمنين بالله رب العالمين وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون اغتاظ فرعون منهم؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن، فأقسم على الانتقام منهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى، ولكن اللّه جعل خذلانه وهزيمته على يد من توسّم فيهم عزته ونصره، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس، فأعلن سخطه عليهم؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم، وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر؛ ولذلك آمنوا به.

هنا نجد التعبير القرآنى يفرق بين الأمر والإذن، فإذا أمر إنسان إنساناً بعمل شىء، فهو يحب أن يتم عمل هذا الشىء، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شىء معين، فليس من الضرورى أن يكون محبا لهذا العمل. ففرعون قال: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، ولم يقل: قبل أن آمركم، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشىء لأنه ليس على هواه ولا يحبه. أراد فرعون أن يشوّه إيمان السحرة أمام الناس، فقال: أنتم آمنتم به؛ لأنه كبيركم الذى علمكم السحر، فهذا وفاء من تلاميذ لأستاذهم، فلا يصح أن يتمردوا عليه وهو كبيرهم ومعلمهم. وكلمة ﴿آمَنتُمْ﴾ أخذت فى القرآن مجالات متعددة وهى من مادة «آمن»، والأمن هو: الاطمئنان وعدم الخوف. وتأتى مرة ثلاثة أحرف - الهمزة والميم والنون -، ومرة تزاد الهمزة فتقول: آمن زيادة ألف على الهمزة، والفرق بينهما أن «أمن» بمعنى اطمأن. ومعنى: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى صدقتموه مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] إذن: «آمن» بمعنى صدق، وآمن به: أى اعتقده، وآمنه: أعطاه الأمن، إلا أن الصيغة فى اللازم والمتعدى فى

الحرف مثل: أمن وآمن تأتى بمعنى واحد فى بعض الأساليب، فمثلاً يعقوب عليه السلام طلب منه أولاده أن يعطيهم بنيامين؛ هنا فرعون قال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أى صدقتموه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، سوء تعليل لواقع الإيمان؛ لأنه يتهمهم أنهم جاملوا موسى لأنه كبيرهم ومعلمهم.

ثم هدّدهم بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، هذا تهديد ووعيد من فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى عليه السلام فهدّد بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ومعنى ذلك أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس بالعكس، ونحن تكلمنا سابقاً عن بعض الحروف التى تأتى بمعنى بعضها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ والتصليب يأتى بوضع شىء على شىء وربطه ربطاً محكما. فهنا جاء حرف الجر ﴿فِى﴾ بدلاً من «على»، فلم يقل: لأصلبنكم على جذوع النخل، ولكن قال: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.. لماذا؟ بعض العلماء قالوا: لأن الحروف تأتى بمعنى بعضها، ولكن هذا لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان.

إذن.. فالتصليب: أن تأتى بمصلوب عليه وهو الخشبة أو الحديد، وتأتى بمصلوب وتربط المصلوب على المصلوب عليه، وتشد الرباط. ويمكن أن تجرّب هذا بنفسك، بأن تأتى بعود كبريت وتربطه على إصبعك بخيط وتشدد الربط، فشدّة الربط تجعل عود الكبريت يغوص فى لحم إصبعك، فيصبح كأنك لم تصلبه على إصبعك ولكن فى إصبعك، وهذا مبالغة فى التصليب.. إذن حين يأتى بعض العلماء فى التفسير ويقول: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أى: على جذوع النخل، ثم يعلّل ذلك بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض. نقول له: لا؛ لأن المعنى: لأصلبنكم فى جذوع النخل تصليباً قوياً، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه، فكأنه ليس عليه، بل هو داخل فى حيزه.. فالمعنى لا يتم إلا بهذا.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، يقصد به العذاب الذى سينزل بهم، فهو سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسيصلبهم فى جذوع النخل ويتركهم على هذا الحال، فسيجمع فى العذاب بين أمرين هما الشدة ودوام الزمن.

❁❁❁

إيثار السحرة للإيمان

قال السحرة لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] الإيثار: هو ترجيح أحد الاحتمالين على

الآخر، قولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واعٍ وحكيم؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا: لن نؤثرك على موسى، ولكنهم لم يذكّروا موسى، وذكروا البيّنة التى جاء بها؛ ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة]؛ فالارتقاء من الرسول إلى البينة التى جاء بها إلى من أعطى له هذه البينة ثلاث مراحل.

والبينات: هى الأمور الواضحة التى تحسم كل جدل حولها، وتجعل الأمر واضحاً غير محتاج إلى جدل، فكأنهم قالوا لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على يد موسى، ولن نؤثرك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا. وربما كان قولهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قسَم، مثلما نقول: لن أفعل كذا وكذا والذى خلقك، كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى. بعد ذلك انتقلوا إلى ما هدّدهم به فرعون؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل، فقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أى: نفّذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدى والأرجل والتصليب فى جذوع النخل.

أو أن المعنى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: افعل ما بدا لك، حتى لو كان أشد مما قلت.. لماذا؟ لأنك تقضى هذه الحياة الدنيا، فأنت يا فرعون إنسان من الممكن أن تموت الآن، فتكون قد قضيتَ مدة حياتك، وقد يأتى من بعدك من لا يفعل ذلك، وهب أن من جاء بعدك فعل هذا الشىء فهو أيضاً حياته منتهية، حتى ولو اتصلت الحياة حتى تقوم الساعة، فالحياة الدنيا كلها منتهية، ومادام الشىء منتهياً ومتروكاً فلا يحزن عليه، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]؛ فنحن آمنا بربنا ومادمنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر، فهذا رشد التفكير، ولا يصح أن تلومنا على رشد تفكيرنا؛ لأن رشد هذا التفكير سيغيّر فينا أشياء كثيرة، فنحن أخطأنا كثيراً، فآمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر، فكأن المسألة كلها كانت عبارة عن جماعة مكرهين على عمل من الأعمال، قد لا يوافق طبيعتهم ولا ميولهم، وما أكثر ما يكون هذا، فتجد واحداً ينفذ أوامر الطغاة وهو غير مقتنع بها. إذن.. يستفاد من ذلك أن هناك طغاة يحبون أن يحملوا الناس على ما يكرهون من الأعمال.

ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾: أى إنك يا فرعون ستزول وملكك سينتهى، والطغاة الذين سيأتون بعدك سيزولون وتنتهى حياتهم، ولا يبقى إلا اللَّه وحده رب كل شىء ومليكه، فهو سبحانه يُعيش كل خلقه فى أسبابه التى خلقها، ولكن فى الآخرة لا يعيشون بالأسباب، بل يعيشون بالمسبب.

وأن اللَّه خير من كل شىء، ولذلك قالوا: إن الذى يجعل اللَّه دائماً فى باله، يوقن أن فى اللَّه عوضاً عن كل فائت؛ لأنك ساعة تجعل اللَّه فى بالك دائماً تستحى أن تعمل معصية وهو يراك؛ ولذلك فالرسول ﷺ يقول: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1]».

❁❁❁

استكبار فرعون بغير الحق

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨] كأن فرعون بعد أن سمع كلام موسى، أراد أن يبين لقومه أن هذا الكلام لم يؤثر فيه، وخشى أن يكون كلام موسى وهارون قد أثَّر فى عقول قومه، فأراد أن يلبس على هذه العقول مرة أخرى، فقال: إن هذا الكلام غير صحيح، وأنه مازال إلٰهاً، وما زال هامان هو الآخر يمالئه، حتى إنه يقول له: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فيأمر هامان بأن يبنى له صرحاً عاليا؛ ليصعد عليه حتى ينظر إلى الإله الذى يدعيه موسى. وحتى نعرف أن هذا الكلام من فرعون كله عبث، ومحاولة لكسب الوقت.

ومع أن فرعون تظاهر أمام الناس بأنه سيبنى صرحاً ليصعد عليه، وينظر إلى إله موسى.. حتى يتحقق من مدى صدق كلامه، فكان عليه أن ينتظر حتى يستجلى الأمر، ولا يصدر حكمه مقدماً، ولكنه لم يلتزم بذلك، واتهم موسى بالكذب، فقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وذلك حتى يخدّر مشاعر الملأ، والقوم الذين شهدوا هذا الموقف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يفيد أن الاستكبار

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ومسلم [٨/ ١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

حين يكون بحق؛ يكون لحماية ضعيف من بطش قوى أو مجرم، فهذا أمر محمود، وحين يصف اللَّه تعالى نفسه بالكبرياء والعظمة فهذا الأمر لصالحنا جميعاً؛ لأنه حماية لنا جميعاً، ففرعون استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق، أى بغير أن يكون عندهم رصيد ذاتى لهذا الاستكبار. فالاستكبار من الإنسان يعنى أن هذا الإنسان يظن أنه لن يرجع إلى اللَّه الذى خلقه ورزقه.

❁❁❁

وقد خاب من افترى

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه] إن فرعون ترك موسى وبدأ يدبر أموره ويعد العدة لمواجهته يوم الزينة، ومعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ الكيد هو التدبير الخفى للخصم، وإذا دبرت فى الخفاء للخصم فهذه ليست شهادة لك بالقوة، ولكنها شهادة بالضعف؛ لأنك ما دمت تدبر تدبيراً خفياً فكأنك لا قوة لك على المجابهة الواضحة، فمن يدس السم لواحد ليتخلص منه، أو يسلط عليه من يضربه، أو يقتله، هذا معناه أنه يضعف عن مواجهته، إذن.. الكيد ليس دليل القوة ولكنه دليل الضعف؛ لذلك بعض الناس حينما يقرأ قول اللَّه تعالى عن النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يظن أن المرأة أقوى من الرجل، فى هذا نقول له: لا.. لأنها مادامت تكيد كيداً عظيماً فهذا دليل على أن ضعفها أعظم؛ لأنه لا يكيد إلا الضعيف، أما القوى فيواجه ولا يخاف.

وقال اللَّه تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم﴾ يعنى أن موسى كلم السحرة الذين أتى بهم فرعون وقال لهم: لاحظوا أن لكم ربا وإن فعلتم أى شىء مخالف لمنهجه فياويلكم من عذابه، فهو يحذرهم من عاقبة فعلهم ومحاولتهم نصرة فرعون، ومعنى: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أى يستأصلكم بعذاب فى الدنيا، علاوة على عذاب الآخرة، وكلمة ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ أى جاء بالفرية، والفرية هى تعمد الكذب.

❁❁❁

إعذار اللَّه تعالى لآل فرعون

قال وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، لم يأتِ الهلاك لفرعون وقومه فورا، بل جاء على مراحل، وهذا من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه يأخذ الكافرين بالشدة، ليذكرهم بقوته وقدرته

لعلهم يتوبون إلى اللَّه ويرجعون إليه. والسَّنة هى العام، ولكنها تطلق على الجدب والقحط، وكان رسول اللَّه ﷺ حينما يدعو على الكفار من قومه يقول: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف[1]»؛ أى أعطهم شيئاً من القحط؛ لعلهم يفيقون ويتأدبون ويرجعون إلى اللَّه إذن.. فالسنة: المراد بها القحط والجدب، ولكن لماذا سميت كذلك؟ لأن نعم اللَّه على خلقه كثيرة ومتوالية وابتلاءاته لهم فى الكون قليلة، إذن فمدة النعمة طويلة، ومدة الشدة قصيرة، حتى إنه من قلتها يؤرخ لها فيقال: هذه سنة الجراد أو سنة الجدب. أو سنة الفيضان المغرق. لماذا يؤرخ لهذه الأحداث المفجعة؟ لأن الأحداث السارة مدتها طويلة جداً، ولكن أحداث البلاء عادة لا تحدث إلا على فترات متباعدة؛ ولذلك إذا أحصى أى واحد منا أيام البلاء فى عمره، لوجدها قليلة بالنسبة لأيام الرخاء.

وقوله: ﴿وَنَقْصٍ﴾، فإذا كانت السنون هى الجدب والقحط، فما هو النقص من الثمرات؟ نقول: إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم، ولكن هذه الثمرات لم تعطهم عادة ما كانوا يأخذونه منها، فيطرح النخل على سبيل المثال قليلاً بدلاً من أن يطرح الكثير من البلح، وهكذا كل أنواع الثمرات. لماذا؟ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يبقى أسباب رحمته لخلقه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فى هذه الآية: القضية هنا تكمن فى أن الإنسان إذا أحس أنه قد استغنى بعلمه أوبقوته عن اللَّه فإنه يطغى فقوم فرعون تعودوا أن يزرعوا وتعطيهم الأرض من خيراتها الكثير، وظنوا أن ذلك بعلمهم، فجاء موسى ليلفتهم إلى أن ذلك من عطاء اللَّه، وحدث منهم ما حدث فعندما زرعوا هلك معظم المحصول وما بقى أعطاهم ثمرا قليلاً، إذن تخلت عنهم الأسباب، وفى هذه الحالة لا يوجد أمامهم إلا المسبب؛ أى إلا أن يقولوا: يارب.

آل فرعون عندما رفع اللَّه عنهم الجدب لفترة وأعطتهم الأرض من خيراتها قالوا: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أى أننا نستحق هذا الخير؛ لأننا قد حرثنا الأرض ووضعنا البذرة وسقينا.. إلى آخر هذا، تماماً كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، أى نسب الأسباب لنفسه، فخسف اللَّه به الأرض؛ لتعرف الدنيا

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/ ٥٢١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين.

كلها أنه لا حول ولا قوة فى هذا الكون إلا للّه، وأن الإنسان مستخلَف فى الكون، وأن الأسباب خاضعة للإنسان بأمر اللّه وليس بقدرة البشر.

آل فرعون أخذوا نفس أسلوب قارون، فإذا جاءت الأرض بمحصول حسن قالوا : هذا جهدنا وعلمنا، ولكن ماذا يحدث إذا أجدبت الأرض مرة أخرى؟ هل يرجعون إلى اللّه ويعترفون بالحق؟ لا؛ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

إذا جاءت آل فرعون الحسنة نسبوها لأنفسهم، وإذا جاءت السيئة تشاءموا بموسى ومن آمن معه، فالطِّيَرة هى التشاؤم، وهو ضد التفاؤل ويقال: فلان طائره نحس، وفلان طائره يُمن، وكانوا فى الماضى إذا شغلهم أمر، يأتى الواحد منهم بطائر يضعه على يده ثم يطلقه، فإذا طار يميناً فهذا فأل حسن، وإذا طار يساراً تشاءم الرجل، فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن هذا الجدب ليس من فعل موسى عليه السلام، لأن موسى لا يملك فى كون اللّه شيئاً، إنما مالك الكون هو رب موسى؛ ولذلك فاللّه سبحانه وتعالى لا يريد لأحد أن يفتن فى موسى عليه السلام فيقول: إنه قادر على أن يأتى بالزرع والخير، وقادر على أن يذهب بهذا الخير ويجعل الأرض جدبا.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناها: أنه توجد قلة تعلم وكثرة لا تعلم؛ فلماذا لم تتحدث القلة التى تعلم بما تعلمه ؟ نقول إن هذه القلة سكتت خوفا من طغيان فرعون، فكثير من الناس يرى أمامه الفساد ولا يفتح فمه ولا يتكلم، على أن آل فرعون رغم هذه الآيات الصغرى التى أخذهم اللّه بها، مضوا فى تحدّيهم، وهذه الآيات كان من المفترض أن تلفتهم إلى قدرة الحق سبحانه وتعالى، ولكنهم أخذوها بالتحدى، وفى ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تصرف منهم يبرر حدوث الهلاك لهم، فهم أولاً: أخذوا آيات اللّه التى أراد سبحانه أن يلفتهم بها لقدراته على أساس أنها سحر، مع أن السحرة الذين هم سادة فن السحر، خرّوا ساجدين وآمنوا باللّه، وإذا كانت هذه الآيات سحراً، فلماذا لم يبطل السحرة هذا السحر؟ و ﴿مَهْمَا﴾ هنا تدل على استمرارية العناد وتصميم على عدم الاستماع إلى منهج اللّه؛ أى أنهم أغلقوا الباب نهائياً، فهم لم يؤمنوا مهما جاءهم من آيات. وفى وصفهم الآيات بأنها سحر غفلة منهم؛ لأن المسحور لا إرادة له مع الساحر، ولذلك عندما قالوا عن رسول اللّه ﷺ بهتانا وزورًا أنه ساحر، وأنه يسحر الناس

ليؤمنوا، قول مردود عليهم؛ لأنه مادام قد سحر الناس ليؤمنوا، فلماذا لا يسحركم أنتم ؟ ولكن كونكم لم تسحروا وتصرون على العناد وعدم الإيمان، فالمسألة إذن ليس فيها سحر، ولكن فيها مكابرة، وأنت ساعة تسمع كلمة «مهما» تعرف أن هناك شرطاً وجواباً، ويقول العلماء: إن أصلها «مه» بمعنى كف، أى أنهم يقولون لموسى: كف عن هذا الأمر فما تأتنا به من آيات لا نصدقك، وأمام إصرارهم وعنادهم أرسل الحق سبحانه وتعالى عليهم مزيدا من الآيات التي تلفتهم إلى ضعفهم وقدرة اللّه، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] و ﴿الطُّوفَانَ﴾ هو: طغيان الماء، يجعله اللّه سبباً للدمار، ولكن الماء هو سبب الحياة فكيف يكون سبباً للدمار؟ نقول: لا تأخذوا نعم الدنيا بذاتيتها، ولكن خذوها بأوامر الخالق لها، فالماء سر الحياة، فإذا أراده اللّه أن يكون سر الهلاك، جعله طوفاناً يقضى على الحياة، والطوفان الذى حدث فى عهد نوح نجا منه المؤمنون مع نوح فى السفينة، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا هنا وجود سفينة لجأ إليها أتباع موسى، إذن.. فلابد أن الطوفان الذى أصاب آل فرعون لم يصب بنى إسرائيل.

ولكن آل فرعون بعد أن ذهب عنهم هذا البلاء رجعوا إلى كفرهم، فجاءهم الجراد ليهلك الزرع ثم جاءهم القمل، وهو غير القمل الذى يصيب الإنسان فى بدنه وثيابه، وهو حشرة تصيب النبات، معروفة باسم «القراض»، ثم جاءت آية الضفادع كلما وضع إنسان من آل فرعون ـ رجلاً أو إمرأة ـ يده فى مكان وجد فيه ضفدعة؛ فى الطعام ضفادع، فى الماء ضفادع، فى الثياب ضفادع، ثم جاءت آية الدم: كل شىء يمسكه أحد من آل فرعون يتحول إلى دم، حتى قيل: إن المرأة من آل فرعون كانت إذا أرادت أن تشرب ماء ذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها: خذى الماء فى فمك وضعيه فى فمى، وكأنما تريد أن تحتال على اللّه، ولكن الماء فى فم قوم موسى يكون ماء، فإذا ما دخل فم قوم فرعون انقلب دماً.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾؛ معناها: أن اللّه لم يرسل كل هذه الآيات دفعة واحدة؛ بل كانت الآية تأتى لتنبه فيستغيثوا ويعِدوا بالإيمان وعندما ترفع عنهم يعودون إلى كفرهم، فتأتى الآية الثانية فيعدون فترفع فيكفرون وتأتى الآية الثالثة، وهكذا، وكانت هذه الآيات التسع هى الآيات التى أرسل بها موسى إلى آل فرعون، وهى: العصا التى تحولت إلى ثعبان، واليد التى خرجت بيضاء، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع،

والدم. لقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأنها آيات؛ لأن كل منها تخرق نواميس الكون، فتصيب من يريد اللَّه إذلاله، وتبتعد عن المؤمنين بموسى، وعلى الرغم أنه فى كثير من الأحيان كان المؤمن والكافر يقفان فى بقعه واحدة، هذه هى المعجزات. ولكنهم رغم كل هذه الآيات كانوا يعدون بالإيمان، ويعودون إلى الكفر وكانوا قوماً مجرمين، والحق سبحانه وتعالى يكمل لنا ما حدث: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ والرجز هنا: العذاب الذى ساقه اللَّه عليهم بالطوفان، والجراد، والقمل والضفادع، والدم، ولم يجدوا نجاة من هذا كله فى آخر الأمر إلا أن يلجئوا لموسى، ويطلبوا منه أن يدعو اللَّه تعالى أن يكشف عنهم العذاب، وفى هذا قد اعترفوا بأن موسى مرسل من اللَّه، وأن العذاب الذى هم فيه لا يستطيع أن يصرفه عنهم إلا اللَّه. إذن فهم أولاً قد اعترفوا ببطلان ألوهية فرعون؛ لأنه لو كان فرعون إلها ما لجئوا إلى موسى ليدعو اللَّه تعالى، وهم اعترفوا بأن موسى عليه السلام مرسل من اللَّه، مقبول الدعاء عند ربه، وهم اعترفوا أنه لا يمكن أن يرفع عنهم هذا العذاب إلا اللَّه. وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أى بما أعطاك من العهد بأن ينصرك لأنك رسوله، وألا يتخلى عنك. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] أى ينقضون العهد، وكان لهم مع كل آية من آيات العذاب عهد بالإيمان، ومع كل رفع للعذاب نقض لهذا العهد، ورجوع عنه، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أى أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى كشف، والكشف جاء استجابة لدعوة موسى عليه السلام، عندما قال له قوم فرعون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فاللَّه هو الذى جاء بالعذاب، وهو الذى كشف هذا العذاب، واللَّه يعلم أنهم سينقضون العهد، ولكنه أراد أن يكونوا شهداء على أنفسهم؛ حتى لا يجادلوا يوم القيامة ويقولوا: يارب، لو كشفت عنا العذاب لآمنا. ووصلت المسألة إلى نهايتها عندما نقضوا العهد مرات ومرات، وكأن فى هذا تحديًا وإصرارًا على الكفر فجاءهم الهلاك، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

❁❁❁

دعاء موسى على فرعون وملئه

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨]؛ ما الزينة؟ هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، والإنسان محتاج لكى يعيش أن يأكل أى نوع من الطعام ولو لقمة خبز جافة. أما كونى أتناول من أصناف الطعام كالسمك والدجاج والديك الرومى والحمام، إلى غير ذلك من أطايب الطعام، فهذا اسمه ترف الحياة.

مقومات ستر العورة أن أستر عورتى بجلباب، ولكن كونى أرتدى الملابس الفاخرة فهذه زينة، والإنسان حين ينام ليس محتاجاً إلى فاخر الفراش، بل يكفيه - حصيرة - أو حتى سرير وعليه «مرتبة» من القطن. أما أن أجعل - المرتبة - من ريش النعام، والفراش من الديباج أو ما شابه ذلك؛ فكل هذا زينة.

إذن.. فالزينة هى ما خرج عن ضروريات الحياة، ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾، مع أن أصل الزينة يأتى من الأموال؟ نقول: هذا صحيح، ولكن الزينة فرع من الأموال، وهناك الرصيد الأصيل للأموال وهو الذهب، وهناك معادن وأحجار نفيسة كثيرة، وأحيانا تكون أثمن من الذهب وأثمن من الفضة، ولكن يظل الذهب هو مقياس الغنى فى العالم كله.. لماذا؟ لأن الأحجار الكريمة لو كسرت - كالماس مثلا - تقل قيمتها لدرجة كبيرة، ولكن الذهب إذا كُسر يُجمع ويصهر وتعاد صياغته مرة أخرى، وتبقى قيمته كما هى؛ ولذلك فإن الرصيد المالى لكل دولة يقدر بقيمة الذهب الذى تملكه، والفراعنة كانوا يسيطرون على الجبال من مصر إلى الحبشة، وكانوا يرسلون البعثات لاستخراج الذهب من هذه الجبال، ومازالت حفريات قدماء المصريين لمناجم الذهب موجودة حتى الآن فى سلسلة جبال البحر الأحمر، ولقد برع المصريون القدماء فى استخراج الذهب من المناجم وصياغة الحلى. والذهب أحياناً يكون موجودًا فى أماكن كثيرة، ولكن استخراجه يتكلف مبالغ كبيرة؛ ولذلك لا يستخرج؛ لأن تكاليف استخراجه تزيد عن قيمته، ويعتبر استخراجه غير اقتصادى.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى أعطى لهم الأموال والزينة، ولذلك ملئوا معابدهم بالنقوش المرسومة بألوان لم تفسد رغم هذه القرون الطويلة، كل هذا زينة أو ترف ومعناها أن حركة الإنسان المترف أكثر من ضروريات حياته؛ ولذلك ينفق ماله فى الكماليات والترف والزينة.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨] معناها: أنهم لم يكتفوا بالكفر لأنفسهم فيكونون ضالين، ولكنهم مضِلُّون أيضًا يدفعون الناس إلى الكفر، فكان عليهم وزرين: وزر لأنهم ضلوا وكفروا، ووزر فى أنهم أضلوا غيرهم، ودفعوهم إلى عبادتهم من دون اللَّه. ولكن هل الحق سبحانه وتعالى أعطى فرعون المال والزينة ليضل عن سبيله هل هذه هى علة العطاء؟ لا.. ولكن هناك «لام» اسمها لام العاقبة.

دعاء موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: امحها أو امسخها، فلقد قال بعض العلماء: إن أموال فرعون مُسِخت بعد هذا الدعاء؛ فما كان عنده من ذهب أصبح حجارة، والذى كان عنده من مال أصبح زجاجاً. وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، الأموال التى كانت عند فرعون كانت وسيلته للإضلال ونشر الكفر لذا قال موسى: يارب، أسألك أمرين:

الأمر الأول: أن تطمس على أموالهم فتجعلها بلا قيمة.

والأمر الثانى: أن تشدد على قلوبهم، أى: اطبع عليها واشدد الرباط على القلوب؛ حتى لا يؤمنوا لأنهم افتروا باتباعهم فرعون ورفضهم الدعوة وصدهم عنها؛ لذلك فهم لا يستحقون رحمتك ولايستحقون هديتك.

ولكن كيف يدعو موسى على فرعون وقومه بهذا الدعاء ولا يطلب من اللَّه أن يهديهم، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام، حين قال: «اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون[1]» نقول: إنه لابد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن فرعون وقومه لن يهتدوا، وأنه لا فائدة منهم، مثلما أطلع نوحاً عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، إن هؤلاء الذين يعلم اللَّه أنهم لن يؤمنوا بعلمه الشامل لكل هذا الوجود، لا تكون هناك فائدة من هدايتهم.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ تلفتنا إلى أن هناك فرقًا بين إيمان الاختيار وإيمان القسر، فالكافر والمشرك ساعة الاحتضار يُكشف عنهما حجاب

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٤٧٧] ومسلم [١٧٩٢/ ١٠٥] عن عبد الله رضى الله عنه.

الغيب؛ ليريا كل ما كان خافياً عنهما، وعندما يريان العذاب يُعلنان الإيمان، ولكنه لا يُتقبل منهما؛ مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، ولذلك فإنه ساعة يأتى العذاب يكون قد انتهى الاختيار البشرى، ولا تقبل توبة ولا إيمان.

فرعون عندما أدركه الغرق قال كما يقصُّ علينا القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وعندما توجّه موسى وهارون بالدعاء إلى اللَّه، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، يلاحظ أن الذى دعا هو موسى، وأن اللَّه جل جلاله قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، مما يدلنا على أن هارون دعا مع موسى، مع أن موسى هو أصل الرسالة، وهارون جاء ليشد عضده، وإذا نظرت إلى طبيعة الاثنين تجد أن هذا رسول وهذا رسول والمهمة واحدة. فإن اعتبرت الذات قلت: رسولان، وإن اعتبرت وحدة المهمة قلت: رسول.

❁❁❁

خروج بنى إسرائيل من مصر

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، بعد أن انتهت المعركة بانتصار الحق وآمن السحرة بموسى، انهدم بذلك جزء من سطوة فرعون وجبروته، فجمع موسى بنى إسرائيل، وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقا إلى الأرض المقدسة فى فلسطين، فتبعهم فرعون وجنوده، فأصبحوا فى خوف شديد لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقا فى البحر.

وهذا حكم القضايا البشرية المعزولة عن منهج اللَّه، لكن القضايا البشرية عند المؤمن قائمة على الإيمان بمنهج اللَّه تعالى؛ ولذلك فالمؤمن حين تصيبه مصيبة فى الدنيا يذكر اللَّه ويقول: لا كرب وأنت رب، فما دام اللَّه ربنا فإنه يهوِّن كل كرب يقع لنا فى الدنيا؛ لأنه سبحانه لن يتركنا أبدا. ونحن ضربنا مثلا ـ وللَّه المثل الأعلى ـ قلنا: هب أن إنسانًا معه جنيه ثم فقده، فى هذه الحالة يغضب هذا الإنسان إذا لم يكن معه غيره، لكن إن كان معه غيره أو له رصيد فى البنك أو فى الخزانة، فإنه لا يغضب ولا يحزن، فكذلك المؤمن إذا ضاع منه شىء لا يحزن؛ لأن عنده رصيداً، ورصيد المؤمن هو إيمانه بربه الذى لا تنفد عطاياه، ولا يتخلى

عن عباده أبدا. اللَّه سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب لقومه طريقا فى البحر، و «الضرب» هو: إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروب؛ ليصبح صالحاً للاستعمال؛ ولذلك كانوا يكتبون على النقود الفضة أو الذهب «ضُرب فى مصر» فمعنى ضرب النقد: أى أنه تم سكّه وختمه وصار عُمْلَة، فبعد أن كان معدنا أصبح عملة نقدية متداولة. ولكن أن يضرب موسى لقومه طريقا يبسا فى البحر، فهذه مسأله غريبة فى قوانين البشر؛ لأن «اليبس» أرض صلبة يابسة، والبحر ماء.. فكيف يحدث ذلك فى عرف البشر ؟ ربنا سبحانه أوحى إلى موسى وقومه بأنه هو المتكفل بهذا الأمر، وقال له: اضرب البحر بعصاك ولا تخشَ أن يدركك فرعون أو أن يغرقك البحر، أى لا تخف دركًا من فرعون ولا تخش غرقا من البحر؛ لأن الطريق مضروب، ولذلك تجد المعجزة مع موسى غريبة جدا: عصا يضرب بها ماء فيصير ما تحت العصا يَبَسًا وما حولها جبالا، ويضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء، ويلقيها على الأرض فتصير حية تسعى.

ومعنى ﴿أَسْرِ﴾ أى امش بالليل؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون، ثم يقول تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه]، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى، فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة، فلما قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ طمأنهم موسى بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، قال لهم ﴿كَلَّآ﴾، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند اللَّه؛ لأنه ربى الذى سيهدينى إلى طريق النجاة، فالقرآن يعطينا لقطات متعددة تخرج القصة كاملة.

وكلمة ﴿غَشِيَهُمْ﴾ معناها غطّاهم من البحر ما غطاهم، وأنت حين تبالغ فى شىء تقول: لقد حدث ما حدث، وحصل ما حصل. فأنت تبهم الشىء؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل. كذلك قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا، فموسى حينما مشى فى الطريق «اليبس» ونجا بقومه - بنى إسرائيل - وتبعه فرعون بجنوده، أراد أن يضرب البحر بعصاه؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراءهم، وكان هذا اجتهادا منه، ولكن الوحى الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]، وكانت الحكمة

من ترك البحر على حاله إغراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق اليبس، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع اللَّه الماء إلى استطراق سيولته؛ فيغرق فرعون وجنوده، فيكون اللَّه تعالى قد أنجى وأهلك بالشىء الواحد .

ومعنى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] أى أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك؛ لأنه كان دائما يدعى أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد، كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ففرعون كذب فى هذا الزعم؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق، ولم يهدهم إلى سبيل الرشاد.

❁❁❁

البحر أنجى الله به موسى ومن معه وأغرق فيه فرعون ومن معه

ها هم قوم موسى أمام البحر يخشون الغرق، وتتجلى معجزة اللَّه تعالى لموسى عليه السلام فى أن قوم فرعون خلفه والبحر أمامه فيوحى اللَّه له: أن يضرب بعصاه البحر؛ فينفلق البحر كل فرق كالطود العظيم. انتقل الماء من قانون السيولة المسخر به، إلى قانون التجمد الذى أراده اللَّه، وصار البحر طريقًا؛ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، طُرق البحر التى تفرقت بعصا موسى صارت جافة يابسة، تصلح للمرور والسير عليها، لقد أرسل اللَّه الريح لتجفف أرض الطرق التى انشقت بعصا موسى، لقد أصبح البحر سراديب، فسارت فيه الاثنتا عشرة جماعة التى خرجت مع موسى عليه السلام، وبينما هم سائرون مع موسى؛ لينجوا جميعهم خوفًا من أن يلحق بهم فرعون وجنوده، قال بعضهم: أين إخواننا الذين كانوا معنا؟ أجابهم موسى عليه السلام بما معناه: إنهم يسيرون فى الطرق الأخرى التى انشقت بالعصا، كما أراد الحق أن ينجيكم، لكنهم شكّوا فى ذلك، ورفع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلق من لم يؤمن بقدرة الحق، ورغب فقط فى التمتع بمعجزات الإيمان.

وأوحى اللَّه لموسى أن يضرب بالعصا على الفِرْق العظيم، فانشقت فى كل فرق كوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها، ويقال: إن جبريل كان قد ركب فرسا أنثى آتاها الشبق، وهى تمخر فى البحر. وكانت الفرس ـ التى لفرعون ـ قد

شمّت ريحها فملأها الهياج، فاقتحمت البحر وراءها، فغرق فرعون ومن معه أجمعون، ونجا موسى ومن معه. هكذا شاءت إرادة الحق أن تهلك وأن تنجّى بالسبب الواحد، انشقاق البحر ثم عودته مرة أخرى إلى حالته، وعندما جاء الغرق إلى فرعون أعلن الإيمان، لكن لا قبول للإيمان فى اللحظة الأخيرة؛ وإنما بقى جسد فرعون آية لإثبات قدرة اللّه، وفى ذلك يقول الحق: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس]، لقد شاءت إرادة الحق أن يبقى جسد فرعون بعد الغرق محفوظاً؛ ليراه الناس من بعد ذلك؛ ليعتبروا بالعظة التى أرادها اللّه، لقد غرق آل فرعون ولم ينجُ فرعون من الغرق، إنما الذى نجا هو جسده، حدث ذلك أمام عيون من خرج مع موسى عليه السلام، هرباً من ظلم فرعون، وبعد أن تأكدوا من نجاتهم جميعاً.

ولما بدأ موسى الفرار بقومه من بطش فرعون وجبروته، تبعه فرعون وقومه، وأصبحت كل فئة على مرمى البصر من الأخرى؛ أى أن قوم موسى يرون فرعون وجنوده مقبلين، وقوم فرعون يرون موسى وأتباعه وهم يفرون، قال قوم موسى لنبيّهم: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء]، كان كلام قوم موسى منطقياً مع الأحداث؛ لأن قوم فرعون وراءهم يسارعون إليهم، وأمامهم البحر لا يستطيعون أن يهربوا، فلابد أن يدركهم قوم فرعون.

ولكن موسى قال: ﴿كَلَّآۖ﴾، لماذا؟ لأنه رسول رب العالمين، وربه الذى أرسله لن يتركه، وإذا كانت الأسباب قد عجزت، فربُّ الأسباب سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء؛ ولذلك فعندما تخلت الأسباب عن موسى وقومه، التجأ إلى ربِّ الأسباب، ولم يلجأ إلى قدرات البشر، وقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ أى: إن اللّه تعالى معى وسيهدينى إلى طريق النجاة؛ حينئذ جاءه المدد الإلهى من اللّه تبارك وتعالى، يقول رب العالمين: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وهكذا أنجى اللّه جل جلاله موسى وقومه بأن خرق لهم قانون سيولة واستطراق الماء

فرعون وقومه حين تبعوا موسى وقومه ساعة فروا من مصر ماذا حدث ؟ يقول الحق عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، كان قول قوم

موسى يتفق مع العقل والمنطق فالبحر أمامهم وفرعون وقومه أصبحوا على مدى الرؤية منهم، فإذا وصل قوم موسى إلى البحر فلن يستطيعوا السير، وسيدركهم قوم فرعون، ولقد تصور قوم موسى أن البحر خارج عن قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، وأنهم ما داموا قد وصلوا إلى البحر فقد انعدمت سبل النجاة أمامهم، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن البحر لم ينفلت عن قدرة اللَّه؛ لأن لله ما فى السموات وما فى الأرض، والبحر منها، وموسى بشفافية النبوة أدرك هذه الحقيقة فقال بثقة المؤمن فى ربه: ﴿كَلَّآ﴾ ماذا يعنى موسى بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ وفرعون وجنوده على مرمى البصر منهم، والبحر من أمامهم ؟ موسى كان يعلم أن اللَّه لن يتركه، ولن يترك المؤمنين معه، وأنه سيفتح لهم سبل النجاة؛ لذلك كان وحى اللَّه تعالى إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وغرق فرعون وقومه، وهكذا نجد أن موسى رفع الأمر إلى اللَّه، وبضربه واحدة من العصا، أوجد اللَّه سبحانه وتعالى لموسى وقومه طريق النجاة فى البحر، فأوجد لهم وسط هذه الأمواج - التى فقدت قانون استطراقها؛ وتوقفت لتفتح طريقا يابسا؛ تكون فيه النجاة لموسى وقومه - طريقا، ولكن هذا الطريق وهذه المعجزة التى كانت سبيلا لنجاة موسى وقومه كانت هى نفسها الطريق لهلاك فرعون وقومه؛ فبعد أن عبر موسى وقومه البحر، جاء قوم فرعون وراءهم، وأبقى اللَّه سبحانه وتعالى الطريق مفتوحا ميسرًا لهم ليسروا فيه، وعندما نزل قوم فرعون وأصبحوا فى وسط البحر، أمر اللَّه الماء أن يرجع كما كان، فرجع كما كان، وغرق فرعون وقومه. يقول تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء] معنى: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أى قربنا، فقوم فرعون قربناهم من وسط البحر؛ أى قربنا هناك قوم فرعون إلى وسط الطريق، وأنجى اللَّه تعالى موسى ومن معه أجمعين؛ فكسب موسى ومن معه المعركة دون أن يخسروا شيئًا، ثم أغرق اللَّه فرعون وجنوده فى البحر، فالله تعالى أنجى وأغرق بالشىء الواحد.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء]، والمعنى: أن فى هذا الذى حدث لآية، و «الآية» هى الأمر العجيب الذى يخرج على العادة، ويثير إعجاب الناس واندهاشهم، وهذا مثل قولك: فلان آية فى الذكاء أو الخلق، ومع هذه الآية الواضحة المعجزة ما كان أكثرهم مؤمنين، مع أنه كان من المفترض أن يؤمن كل من رأى هذا الأمر العجيب ولكن هذا لم يحدث؛ لأنه حتى الذين تبعوا موسى، وأنجاهم اللَّه وجاوز بهم

البحر وعمل لهم كل هذه المعجزات، لما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، طلبوا من نبى اللَّه موسى أن يجعل لهم إلها كآلهة هؤلاء الناس.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ ولم يقل: اجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية، وإنما تم بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى التى هى فوق الأسباب، فلو كان بنو إسرائيل قد حفروا خندقاً، أو بنوا حائطاً، أو أعدّوا بعض السفن؛ ليعبروا بها البحر. إذن هم قد اجتازوا البحر بأسباب البشر، ولكن قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ تدل على أن العملية تمت بقدرة اللَّه، وليس بأسباب البشر، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، وكما نعرف فإن قانون الماء هو السيولة والاستطراق، واللَّه تبارك وتعالى طلب من موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق وتجمد.

موسى عليه السلام بمجرد أن ضرب بعصاه البحر، تحول الماء من السيولة إلى جبلين بينهما وادٍ، لماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقاً يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين، لخاف بنو إسرائيل أن يعبروا، وقالوا: ربما أغرقنا الماء ونحن لم نتم العبور، واللَّه سبحانه وتعالى يريدهم أن يطمئنوا ويعبروا بسرعة وبلا تردد، فجعل الماء على الناحيتين يجمد؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام.

بعد أن عبر موسى وقومه البحر، أراد أن يضرب البحر بعصاه؛ فيعود مرة أخرى إلى السيولة؛ حتى لا يمر جنود فرعون ويلحقوا بهم، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى طلب منه ألا يفعل ذلك، وقال له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، أى اترك البحر كما هو، وفيه الممر اليابس الذى مر فيه موسى وقومه؛ لأنهم سينخدعون وينزلون إلى الممر الموجود فى البحر ليتبعوكم، وبمجرد أن يكون أولهم قد اقترب من الشاطئ الآخر من البحر، وآخرهم فى أول البحر، فيعيد اللَّه سبحانه وتعالى للماء قانونه فيعود البحر مرة أخرى إلى السيولة؛ فيغرق كل من هو موجود فى الممر، فينجو موسى وقومه، ويغرق فرعون وجنوده بنفس الشىء.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فى هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشرى مرتب، بل يتم بانفعال الشر؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم، كان العقل يقول: لقد خلصنا من موسى وأتباعه، وذهبوا بعيداً، ولكن نوازع الشر فى نفس فرعون، وفى أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هى التى جعلته يتبعهم؛ ذلك أن موسى ومن معه ماداموا قد بعدوا

عن فرعون ومن معه، يكون خطرهم على ملكه قد زال، وانتهت المسألة، هذا إذا كان فرعون يريد ذلك، ولكن فرعون يريد أن يثبت أنه إله، وأنه لا يفلت من قبضته عدو، وأنه لابد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عبرة؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك.

الشر داخل فرعون هو الذى دفعه أن يعبر بجيشه البحر، وإحساسه بقوة جيشه وضعف موسى وقومه، هو الذى جعله يصمّم على أن ينكّل بهم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾؛ والبغى هو تجاوز الحد، والعدوان هو الإصرار على الباطل. وحينما نقرأ قول اللّه سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدّعى الألوهية؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض، ونسى قدرة اللّه المسبب. ولو أن البغى والعدوان لم يكن بداخله، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر، أن إله موسى سينجيه ولن يتركه يهلك، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية، تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى، فليس من قدرة البشر، ولا غير البشر، أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبلين بينهما ممر، ولكن غرور فرعون وعدوانه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها اللّه أمامه؛ علّه يفيق لقد كان مشغولاً بألوهيته وجبروته، وكان الكفر يملأ قلبه، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه.

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾. والإدراك: أن يقصد المدرك أن يلحق بالشىء الذى يريد أن يدركه، ويبذل كل جهده فى ذلك والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، كأن الغرق جندى من جنود اللّه وله عقل، وقد تلقى الأوامر من اللّه؛ ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم، ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق ؟ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، الإيمان إذا أطلق يكون دائما إيماناً باللّه سبحانه وتعالى؛ ولذلك تقول: آمنت، فيعرف كل من يستمع إليك أنك آمنت باللّه، ولكن فرعون لم يقل: آمنت فقط، بل قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، كل هذا يأتى لتأكيد المعنى؛ لأن فرعون كافر ومدّع للألوهية، ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه باللّه، وخصوصاً أنه دُعِى أكثر من مرة إلى الإيمان، ورأى

أكثر من معجزة ولم يؤمن، فلابد هنا من تأكيد المعنى، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، أى أتقول الآن: إنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، وقد كنت تملأ الدنيا كفراً ؟! المردود هنا ليس الإيمان نفسه، ولكن زمن الإيمان؛ لأن هناك فرقاً بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار.

فرعون وهو يغرق كان فى إيمان الإجبار؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته، وإيمان الإجبار لا ينفع، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]؛ أى أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول: آمنت، بينما كان عندك زمن طويل؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك اللَّه معجزات كثيرة على يد رسوله موسى، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر؛ ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً؛ لأن هذا إيمان إجبار.

واللَّه سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار، لقهر اللَّه سبحانه وتعالى عباده على الإيمان، وما استطاع واحد أن يكفر باللَّه؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر اللَّه سبحانه وتعالى، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار، أن يأتيه عن محبوبية، ولا يتم إيمان المحبوبية إلا إذا كان الإنسان مختارا أن يؤمن أو لا يؤمن، فالذى يأتى عن طريق الاختيار، تكون له منزلة كبيرة عند اللَّه، إذن فالمردود ليس القول، ولكنه زمن القول، يقول بعض الناس: إن اللَّه ردّ إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات ؟ نقول: إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار، وفرعون حينما قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كان بنو إسرائيل فى ذلك الوقت يجسمون اللَّه سبحانه وتعالى، أنه جالس على صخرة من المرمر وقدماه فى الماء، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى حتى ساعة إعلان إيمان فرعون، أن يكون هذا الإعلان باطلاً، الحق يقول: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، ونحن نعرف أن الإنسان مكون من بدن وروح، البدن أو الجسد هو الهيكل المادى، والروح هى التى تعطى هذا الهيكل الحياة والحركة، إذن فقوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى بجسدك مجرّدًا من الروح.

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] أى بجسدك المجرد عن الروح، ولذلك جعل اللَّه سبحانه وتعالى البحر يلقى بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة؛ حتى يراه الذين عبدوه جسداً بلا روح؛ ليعرفوا أنهم

قد عبدوا إلهًا غير قادر على أن يعطى الحياة لنفسه، فكيف يعطى الآخرين الحياة؟! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه، ربما قال أتباعه: إنه قد اختفى وسيعود، ولكن ظهوره كجسد بلا روح يجعلهم يرون نهايته؛ علّها تكون عبرة لهم حتى لا يعبدوا بشرا بعد ذلك؛ ولذلك يقال: إن سبب حفظ أبدان الفراعنة أن اللّه سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشرى؛ لكى تكون أجسادهم عبرة لمن يجىء بعدهم، ويرى الناس أولئك الذين ادّعوا الألوهية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة، وأراد اللّه أن يرى قوم فرعون جسد فرعون، ذلك الطاغية الذى كان يدّعى الألوهية ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

وقوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ [يونس: ٩٢]؛ أى تجعلك بنجوى؛ أى: مكان عالٍ؛ حتى يراك الناس جميعاً وتكون ظاهرا لهم، لا يُخفى جسدَك رمالٌ أو تلٌّ أو أية عوامل طبيعية، بل تكون عالياً أمامهم؛ ليروك جميعاً، لماذا؟ لتكون لمن خلفك آية، والآية هى الشىء العجيب الذى يلفتنا إلى طلاقة قدرة اللّه وعظمتها.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، أى أن اللّه تعالى عجل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة. والأخذ معناه: أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعًا فى قبضته مرة واحدة، ويلقيهم أينما شاء، وهذا ليس فى قدرة البشر، وإنما فى قدرة اللّه تعالى وحده. لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. أما فى أخذ المناهج فيريد منا اللّه أن نأخذ كل منهج من مناهج الخير بقوة؛ قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. فمنهج الخير والنعمة الذى جاءك من عند اللّه تعالى، عليك أن تأخذه بقوة وتلتزم به. واليم: هو البحر، فالله تعالى أخذ فرعون وجنوده ونبذهم فى البحر.

ويلفتنا هنا الحق سبحانه إلى أن نتعظ ونعتبر من هذه الحادثة، فيقول تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن هذه العاقبة كانت عجيبة، ولأن الماء والبحر جندان من جنود اللّه التى تنصر الحق، وتهزم الباطل.

❁❁❁

فرعون يقدم قومه يوم القيامة إلى النار

يعطينا اللّه سبحانه وتعالى الصورة المقابلة يوم القيامة؛ أى أن اللّه تعالى أتى بصورة فرعون وقومه فى الدنيا، وصورة فرعون وقومه فى الآخرة؛ فى الدنيا هم

يتبعون فرعون بلا فهم ويعبدونه بلا فكر. وما داموا قد اتبعوه فى الأولى فلابد أن يتبعوه فى الآخرة ولابد أن يكون هو قائدهم؛ لذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]؛ فكما كان قائدهم فى الدنيا، فهو قائدهم فى الآخرة. فى الدنيا كان قائدهم ومتقدمهم إلى المتعة والنعيم الدنيوى، وهم سائرون كلهم وراءه، لا أحد منهم يحاول أن يسأل نفسه: كيف يكون هذا إلهًا وهو مخلوق؟

قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾، أى يسير أمامهم ويتبعونه يوم القيامة، وفى القرآن آيات فى شرح هذا الموقف.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾؛ فيها تهكُّم عليهم؛ لأنهم حين يذهبون إلى النار تأتيهم حرارة شديدة، فيريدون أن يذهبوا إلى الماء.

اللَّه تعالى قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] فعندما يسمع الإنسان كلمة «ورد» يأتى فى باله ما يذهب الظمأ ويرد الحرارة، ويستبشر أنه سيشرب الماء، وبعد ذلك قوم فرعون حين يسمعون كلمة «ورد» يعتقدون أن فيه نجاة، ثم بعد ذلك يعرفون أنه ورد فى النار، وأنه عذاب، وليس رحمة.

والحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول جل جلاله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية]، ساعة يسمع ليس لهم طعام أى منع عنهم الطعام يحسون بالخزى، فإذا قال: ﴿إِلَّا﴾، فكأنه سيعطيهم بعض الطعام فيفرحون، فإذا قال: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، تكون الحسرة حسرتين.

❁❁❁

موسى فى حضرة ربه

يقول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] الأعداد فى القرآن لها أسلوبان: أسلوب إجمالى، وأسلوب تفصيلى، فاللَّه سبحانه وتعالى يقول فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] أتى بها إجمالاً، وفى هذه الآية أتى بها ثلاثين ثم أتمّ الثلاثين بعشر.

إذن.. فالميقات أربعون ليلة، وبذلك يكون العدد فى القرآن مجملاً مرة ومفصلاً مرة، واتفق الإجمال مع التفصيل فليس هناك خلاف، ولكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فأيهما يُحمل على الآخر؟

obeikandl.com

وقال بعض العلماء: إن سبب امتداد الثلاثين يوماً إلى أربعين هو أن قوم موسى عبدوا العجل ثلاثين يوماً، فكان لابد أن تكون هناك فترة؛ حتى لا يعود موسى إلى قومه وهم يعبدون العجل، فيحدث ما لا تحمد عقباه، وعندما غادر موسى مكان قومه استخلف أخاه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] وموسى وهارون نبيان، وموسى هو الذى طلب من اللَّه أن يشدّ أزره بهارون، ولكن قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ معناه أن ميقات اللَّه ولقاءه كان مهمة موسى وحده، وكان لابد أن يوجد خليفة يبقى على القوم فكان هارون، وبعض الناس قد يتساءل كيف يكون الشريك فى رسالة خليفة لشريكه؟ نقول: إن الاثنين كانا رسولى رب العالمين، ولكن لكل منهما حظ من الرسالة، وحظ هارون أن يبقى، وحظ موسى أن يذهب للقاء اللَّه، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فيها أمر ونهى فـ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر، و ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ نهى، وتكاليف الحق سبحانه وتعالى لعباده لا تخرج عن ذلك «افعل ولا تفعل»، ولا يقول الحق لعباده افعلوا إلا إذا كانوا صالحين للفعل وعدم الفعل، ولا يقول لهم لا تفعلوا إلا إذا كانوا صالحين أيضاً للفعل وعدم الفعل، وهكذا كان التكليف الأول لآدم وحواء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

كلمة أصلح تستلزم على الأقل أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده أحد، ولكن يزيده صلاحاً وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولم يقل «ولا تفسد» وهذا يلفتنا إلى أن هارون نبى لا يأتى منه إفساد، ولكن اللَّه يعلم أنه ستقوم فتنة بعد رحيل موسى، وسيعبد قومه العجل؛ لذلك ألهم موسى لكى يقول لهارون: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى لا تطع القوم إذا أفسدوا فى الأرض؛ ولذلك عندما حدث الإفساد وأمسك موسى برأس أخيه ولحيته اعتذر هارون بقوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، أى أنه فعل ما فى استطاعته لإبعاد القوم عن طريق الفساد ولكنه فشل.

الحق سبحانه وتعالى يكمل قصة موسى عليه السلام فيقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] والميقات هو: الوقت المحدد لعمل من الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ تدل على أن كلامًا حدث من اللَّه لموسى، ولكن الكلام يحدث بين البشر والبشر، وكلام اللَّه للبشر محدد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

إذن.. فهناك نفى صريح بأن لا يكلّم اللّه بشراً إلا بثلاث طرق: إما بالوحى، وإما من وراء حجاب، وإما بواسطة رسول. والوحى: هو الشئ الذى يأتى إلى العقل والقلب فيفهمه الإنسان، ويطمئن له وينفذه على الفور.

ويقول تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] كلمة اختار تدل على أن ما فعله موسى هو فعل اختيارى يستخدم فيه العقل؛ لترجيح رأى على رأى؛ ولذلك يقال اختار أى: طلب الخير، واختار ما يؤدى به إلى هذا الخير. وهذا لا يحدث إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف، فاللسان خاضع لإرادة صاحبه، يخضع للمؤمن حين يقول لا إله إلا اللّه، وللكافر حين يستخدمه فى ما ينقض الإيمان، لم يعص فى هذه ولا فى هذه. ولكن المؤمن اختار الإيمان فقال لا إله إلا اللّه، والكافر اختار ما يناقض ذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ معناه أن موسى فاعل للحدث، وموسى لم يختر قومه كلهم، ولكنه اختار منهم، وقالوا فى علّة أنهم سبعون رجلاً؛ أنها عدد أسباط اليهود، فقد أخذ من كل سبط رجلاً؛ لتكون كل فرق اليهود ممثلة.

وقول الحق: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ معناه الموعد المضروب أو المحدد للقاء اللّه. ولقد جاءت كلمة «ميقاتنا» قبل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا «الميقات» غير «الميقات» الخاص بالأسباط؛ لأن «الميقات» الأول كان ليكلم اللّه موسى؛ أما «الميقات» الثانى فهو لطلب العفو من اللّه عن عبادة العجل، وإظهار الخضوع للّه والندم على ما حدث، وتجديد الإيمان.

قال اللّه تعالى: ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]. إذن.. فكلام الحق سبحانه وتعالى ليس ككلام البشر، ولكنه شىء اختص اللّه به موسى عليه السلام فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يكلم اللّه سبحانه وتعالى خلقه ويحاسبهم. وينتهى الإشكال عند هذا الحد، فلا نخوض فيه.

عندما خص اللّه موسى بميزة الكلام حدث عند موسى استشراق، وقال مادام اللّه قد كلمنى فلأطلب منه فضلا آخر، هو أن أراه، وعادة فإن الأنس والاستشراق بالله محبب إلى النفس المؤمنة، أراد موسى أن يزداد أنسا بربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولكن موسى لم يقل رب أرنى ذاتك؛ لأنه يعرف أنه بطبيعة تكوينه البشرى لا يستطيع أن يرى اللّه، ولكنه يعلم أيضًا أن اللّه تعالى الذى خلق القوانين يستطيع أن يغيرها ويبدلها متى أراد، وما دام موسى ببشريته ليس معدا

لهذه الرؤية، فقد طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يراه، أى يغير طبيعة خلق موسى كإنسان لكى يرى، والمهم أن اللَّه تعالى هو الذى سيفعل، ولكن المخلوق فى الدنيا لا يحتمل فى تكوينه أن يرى الخالق؛ ولذلك كان لابد أن يصطفى اللَّه من الملائكة رسلا؛ ليبلغوا منهجه إلى رسله المصطفين من البشر؛ لأن رؤية اللَّه تعالى فى الدنيا لا يتحملها بشر.

فكيف يمكن لخلق اللَّه أن يتلقوا عن اللَّه بلا واسطة؟! والواسطة هنا لابد أن تكون منتقاة ومعدة لمهمتها؛ ولذلك لا يستطيع أى ملك أن يتلقى من اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن لابد أن يكون ملكا مختارا معدا إعدادا خاصا. وكذلك لا يستطيع كل البشر أن يتلقى الوحى من الملائكة، ولكن لابد أن يكون بشرا مختارا، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] فالمختار من الملائكة يبلغ لمختار من البشر، والمختار من البشر يبلغ البشر كلهم.

كذلك رؤية الحق سبحانه وتعالى فى الدنيا، وهذه ستظهر عندما يعطينا اللَّه الدليل أنه لم يخلقنا فى الحياة الدنيا على هيئة صالحة لأن نراه، ولكن فى الآخرة عندما نُعد إعدادا آخر، يمكننا رؤيتها؛ لكن رؤية نظر وليس رؤية إحاطة، يقول اللَّه سبحانه وتعالى عن المؤمنين فى الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] ويقول سبحانه وتعالى عن الكافرين فى الآخرة: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ولا يمكن أن يستوى المؤمن والكافر فى هذه المسألة؛ فالكافر محجوب، والمؤمن غير محجوب.

ولذلك حينما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ فماذا كان قول الحق سبحانه وتعالى؟ ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ بعض الناس يقول: إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن﴾ معناه أنها تأبيدية؛ أى لن ترانى الآن ولا فى المستقبل، ولا فى الآخرة، وفى ذلك يكون معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أى أن موسى لن يرى اللَّه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

نقول لهم: من قال لكم إن زمن الدنيا كزمن الآخرة، وقوانين الدنيا كقوانين الآخرة، وأرض الدنيا كأرض الآخرة؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إذن فى الآخرة هناك قوانين أخرى وطبيعة خلق أخرى، تجعل الإنسان مثلا يأكل ولا تخرج منه فضلات.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ معناه أنك يا موسى ما دمت على

هيئتك البشرية فى الدنيا، فإنك لن ترانى، ثم يعطيه اللَّه سبحانه وتعالى الدليل على أن طبيعة موسى البشرية لا تتحمل رؤية الحق سبحانه وتعالى، فيقول اللَّه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؟ لأن الجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، والجبل بحكم الواقع وبحكم العقل، أقوى من الإنسان وأصلب منه ملايين المرات، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى: انظر إلى الجبل الصلب القوى المنيع، فإن بقى مكانه فإنك سترانى، وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لموسى استحالة أن يتحمل من هو أقوى منه ملايين المرات رؤية الحق سبحانه وتعالى: فكيف يتحملها موسى؟

ماذا حدث عندما تجلى اللَّه للجبل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ و «الدَّك» هو الضغط على الشىء من أعلى؛ ليستوى بشىء أسفل منه، كأن يكون هناك منزل عالٍ مثلا وتدكه أى تسويه بالأرض، ومن علامات يوم القيامة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] أى أصبح كل ما عليها مساويا لسطحها، فلم يعد عليها شىء قائم، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ نعرف منه أن اللَّه قد تجلى على خلق من خلقه وهو الجبل، إذن فثبت أن اللَّه يتجلى على خلقه، ولكن هل المتجلَّى عليه يقدر على تحمل هذا التجلى أم لا يقدر؟ من الممكن أن يتجلى اللَّه على بعض خلقه، ولكن المهم أن يقوى المستقبل للتجلى على تحمل ذلك، ولكن الجبل الذى هو أصلب من الإنسان ملايين المرات، لما تجلى اللَّه عليه، لم يقو على استقبال تجلى اللَّه. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا لفتة تصاعدية، فلما اندك الجبل: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ يقال: خرَّ الشىء: إذا سقط من أعلى إلى أسفل، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿صَعِقًا﴾ يراد بها الوفاة. وكل من فى السموات والأرض سيصعق عندما تقوم الساعة؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أى سيهلك كل من فى السموات والأرض، ثم يبعثون ليحاسبوا، وبعد أن أصابت موسى الصعقة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أى من الصعقة، فكأنها أصابت موسى بإغماء فقط، والإفاقة هنا أعطت موسى إفاقة ثانية،

من شغفه بالله الذى جعله يطلب ما ليس له به علم. إذن.. فهو أفاق من الصعقة، وفى نفس الوقت أفاق لنفسه، وأحس بأن حبه لله قد جعله يسأل شيئا ما كان يصح أن يسأله؛ ولذلك قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وإذا سمعت كلمة سبحانك، فاعلم أن المراد بها التنزيه عما وقع؛ أى تنزيها للّه من أن يراه مخلوق له.. لماذا؟ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى، فمتى رأيت الشىء، فإنك تستطيع أن تدركه بقدرتك البشرية التى أنت مخلوق عليها الآن.

والقانون الذى يعمل به الضوء فى أعيننا فى الحياة الدنيا، لا يجعلنا قادرين على أن نرى اللّه، والمقدور عليه لا ينقلب قادرًا، والقادر لا ينقلب مقدورا عليه، ولكن موسى لم ينزه اللّه فقط عن أن يراه بشر، بل قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أى أن المسألة اقتضت توبته وموسى تاب إلى اللّه؛ لأنه سأل اللّه ما ليس له به علم، ولم يقف عند الحدود البشرية، بل أراد أن يتجاوزها إلى التجليات المخالفة لقوانين الكون، وكان الموقف بين يدى اللّه يقتضى ألا يسأل موسى، وأن ينتظر عطاء اللّه، والله كلم موسى دون أن يطلب موسى ذلك، ولكن موسى عليه السلام حبا فى اللّه أراد أكثر وأكثر، ونسى قدراته البشرية، ولما أحس بما حدث اتجه إلى اللّه يطلب التوبة، وقال: يا ربى أنا لم أصنع ذلك عن قلة إيمان، فإن ذاتك العلية لا يقدر مخلوق أن يراها أو يدركها، ولكنى فعلت ذلك لفرط حبى لك، وشغفى بك، أنا أول المؤمنين، إنك لا تدركك الأبصار.

❁❁❁

السامرى.. وصناعة العجل

سأل موسى عليه السلام السامرى عن صناعة العجل فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه].

كلمة: ما خطبك، تقال فى الحدث المهم، وهو الحدث الجلل الذى يصلح لأن تقال فيه: خطب، ولذلك وردت هذه الكلمة فى قول اللّه تعالى فى سورة يوسف: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].

إذن.. الخطب هو: الأمر الجلل المهم الذى لا يصح أن نمرّ عليه مرورا عابرا، بل يقال فيه كلام يصل إلى درجة الخطب.

لما سأل موسى السامرى ردّ عليه بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾. يقول

لموسى أنا رأيت بعلمى وأن هذا شئ لم يعرفه القوم، فاجتهاده قاده إلى جمع الحلى، وعمل العجل والعكوف عليه؛ لأنه رأى قومه طلبوا من موسى: أن يجعل لهم إلها مثل القوم الذين مروا عليهم، وهم عاكفون على أصنام لهم.

ومعنى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قبض على الشىء أى أخذه بجمع يده، قوله: : ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة، فقالوا: إن السامرى لما كان جبريل يتعهده، وكان يأتيه على جواد، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شئ اخضرَّ مكان الحافر، أى دبت الحياة فى مكان الحافر، وهذا قول الذين قالوا إن العجل كان عجلاً حقيقيا له صوت طبيعى، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار، ولكن العلماء الآخرين قالوا كلاما غير هذا فقالوا: إن معنى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ الرسول كما نعلم هو المبلغ لشرع اللّه، وهو حامل المنهج المكلف به. فالرسول هنا هو موسى؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل، بل ولم يسمعوا منه، ولكنهم سمعوا من موسى، فهو الذى بلغهم أمر اللّه ومنهجه.

ومعنى: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أبعدتها عن مخيلتى، وتركت لنفسى العنان فى أن تفكر أى تفكير، بدليل أنه قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ ومعنى سوَّلت له نفسه، أى أنها دفعته إلى معصية؛ بأن يأخذ شيئا من آثار الرسول ووحيه الذى جاء به من اللّه، وينبذها عن منهجه، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره، ولذلك لا يقال: سوَّلت لى نفسى الطاعة، ولكن دائما يقال: سَّولت لى نفسى المعاصى.

بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

موسى عليه السلام قال للسامرى: جزاؤك أن تذهب، وأن يكون قولك الذى يجرى على لسانك دائما: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، والمساس هو المس. ولكن السؤال هو: لماذا فعل السامرى ذلك؟ فعل ذلك حتى يكون له سلطة زمنية وأتباع؛ لأنك دائما تجد الذين يفترون الكذب، ويدّعون أن لهم مهمة ورسالة، والذين يدّعون النبوة؛ هدفهم من ذلك هو السلطة الزمنية، وهذه تجعل الواحد منهم يتحلل دائما من منهج الحق، ويسهل التكاليف على الناس؛ لأنه لو جاء بتشديد على الناس سينصرفون عنه، ولكن إذا سهل لهم الأمور، وأسقط عنهم بعض التكاليف، يتبعه كثير من الناس ضعاف النفوس.

إذن.. فمعنى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] أى أن تنعزل

فى حياتك عن الناس وتبتعد عنهم، ولا تحتمل أن يمسك أحد أو يقترب منك. قالوا: فانعزل السامرى عن المجتمع، وهام على وجهه فى البرارى لايمس أحدًا ولا يمسه أحد، وذلك لأن الضال عندما يرى جزاء ضلاله يكره من أعانه على هذا الضلال.

موسى قال للسامرى: عقوبتك أن تنفى من المجتمع الذى كنت تريد فيه عزا وسيطرة ومركزاً وأتباعاً. ثم إنك ستتبرأ من هذا المجتمع، وتقول: إياكم أن يتقرب أحدكم إلىَّ؛ لأنكم سبب البلاء الذى حل بى.

ومعنى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه: ٩٧] أى أن عذاب الآخرة قادم أيضا، فلن يغنى هذا النفى والبعد من المجتمع عن عذاب الآخرة الذى هو أشد وأبقى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧] أى انظر إلى هذا العجل الذى ظللت على عبادته عاكفا - أى مقيما - ومعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: الذهب لا يمكن حرقه؛ لأنه إذا وضع فى النار لا يخرج منه إلا الخبث، ولكنه لا يحترق، ولذلك قالوا: إن معنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: أى لنصيرنَّه كالمحروق، بأن نبرده برادة تجعله مثل الذر، بحيث يذروه الهواء؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ ننسفه أى نطيره، ونذروه فى الهواء، فحرقوا عجل الذهب، بأن جعلوه مبرودا على هيئة ذرات وطيروه فى الهواء على البحر، وبعد أن بيّن الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامرى، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]. حينما يقول اللَّه تعالى ﴿لا إله إلَّا هو﴾ من الذى علمنا كلمة التوحيد؟ الرسول ﷺ نقلها لنا بعد أن سمعها من ربه عن طريق الوحى.

فاللَّه تعالى قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا﴾؛ أنا خلقت السماء والأرض والبشر والحيوان، وخلقت الكون كله بما فيه ومن فيه، فتظل الدعوى له إلى أن يوجد من يعارض هذه الدعوى، فنقول له أين دليلك؟ ومع ذلك فلم يوجد حتى الآن من يدعى هذا الشئ، حتى الذين كفروا باللَّه لم يستطع أحد منهم أن يدعى أنه خلق شيئا من هذا الكون.

إذن.. تثبت الدعوى للَّه سبحانه وتعالى فى أنه وحده الإله الخالق.

❁❁❁

غضب اللَّه تعالى على عبدة العجل

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، حين يقال: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أى أخرجوه عن مهمته فى الحياة، واتخذوه لشىء آخر اخترعوه هم؛ اتخذوا العجل إلها معبودا؛ لأن كل المهام التى هى دون ذلك، والتى يصلح لها العجل؛ هى مهام العجل مخلوق لها.

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وغضب اللّه لا ينزل على الذين اتخذوا العجل لما خُلق له، ولكن على الذين اتخذوه لغير ما خُلق له. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾؛ دليل على أن الغضب والذلة لم تنزل بهم بعد، ولكنها ستأتى. ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم يقل: فى الآخرة، هذا دليل على أن الحق يعلم أنهم سيتوبون إليه بعد أن تُوقع عليهم العقوبة، والحق تعالى يقول فى آية أخرى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ أى أن الحق سبحانه وتعالى من غضبه عليهم، جعل طريق توبتهم إليه أن يقتلوا أنفسهم، وهذا منتهى الذلة ومنتهى الإهانة، ثم بعد غضب اللّه جاءت رحمته فقبل توبتهم.

إذن.. فقول الحق: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دليل على أن غضب اللّه نزل عليهم فأصابتهم ذلة؛ لأن اللّه طلب منهم أن يقتلوا أنفسهم فأصبحوا أذلاء، فالإنسان الذى يُكتب عليه أن يقتل نفسه، يحس بالذلة والهوان، ولا تكون له عزة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ دليل على أن هذا العقاب لا ينزل على بنى إسرائيل خاصة، ولكن كل من يفترى على اللّه، يناله غضب وذلة فى الحياة الدنيا، وهنا علينا أن نتنبّه إلى العبرة من هذه الآيات، فالمسألة ليست رواية لتاريخ بنى إسرائيل، ولكن ليعتبر السامع من سرد القصة، ولا يمكن للسامع أن يعتبر إلا إذا وعى قول الحق سبحانه وتعالى: إن الغضب والذلة سينزلان على كل مفترٍ، فإن هذا تحذير لأى إنسان يفكر فى الكذب على اللّه وعصيانه. ثم تأتى بعد ذلك الآية التى تنبئ بغفران اللّه لهم بعد أن تابوا، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]، وهذا ما حدث فعلا؛ لأنهم حين تابوا غفر اللّه لهم. ومعنى: ﴿تَابُوا﴾ أنهم ندموا على مافعلوا، وصمموا على ألا يعودوا إليه أبدا.

وفعل التوبة فيه عودة إلى الإيمان، وقبول اللّه للتوبة هو قمة عودة العبد

المذنب إلى ربه، على أننا لابد أن نلاحظ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا﴾، فكأن السيئات التى فعلوها نقصت من إيمانهم؛ ولذلك لابد أن يجددوا إيمانهم؛ لأن السيئة غفلة عن اللَّه سبحانه وتعالى، فلا تحدث السيئة ولا المعصية إلا إذا غفل الإنسان عن ربه؛ ولذلك عندما يأتى الإنسان ليتوب لابد أن يجدِّد إيمانه، ويتعهَّد بأنه لن يغفل عن هذا الإيمان أبدا.

فالمعصية: هى مخالفة العبد لمنهج اللَّه، والتوبة: هى العودة إلى هذا المنهج وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لفتة لنا ألا نذكر المذنب التائب بذنبه؛ لأنه إذا كان اللَّه قد غفر له؛ فكيف نتجاهل نحن غفران اللَّه، ونقول له: يا زانى أو يا سارق؟ مادام الإنسان قد تاب، فعلينا أن نبتعد عن تذكيره بذنبه من جديد؛ لأن هذا يؤلمه، وقد يجعله يعود للذنب.

❁❁❁

إخبار اللَّه تعالى لموسى بما جرى

أخبر الحق سبحانه موسى بما حدث فى قومه بعد أن تركهم، لميقاته إذ قال سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥] أى اختبرنا قومك لكن السامرى أضلهم، ومعنى أضلهم، أى: سلك بهم طريقا غير طريق الحق. وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة، فإن سلك هو يكون قد ضل وحده، ولكن إن أضل غيره يكون عليه وزرهم، فعليه وزر ضلاله ووزر إضلاله للغير، ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] بعض المستشرقين يعترضون على القرآن، ويقولون: كيف يقول القرآن: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ مع أنه يقول فى آية أخرى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] نقول لهم: أنتم لا تفهمون اللغة العربية؛ لأنكم تأخذون اللغة كصناعة، وليس كملكة فطرية، وإلا كنتم فرقتم بين أن يضلّ فى ذاته، فهذا عليه وزر، وأن يتسبب فى إضلال غيره، فهذا وزر آخر.

والسامرى اسمه موسى السامرى، وموسى لما سمع بهذه الفتنة فى قومه، رجع إليهم غاضباً قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

ومعنى أسفا: أى عنده حزن شديد على ما حدث من قومه، وسألهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوارة فيها أصول حركة الحياة، وفيها المنهج الذى يحسن حياتكم فى دنياكم، ويحسن ثوابكم فى الآخرة.

ومعنى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ هل عهدى طال بكم لدرجة أن تنسوا تعاليم ربكم؟ فأنا لم أغب عنكم إلا بضعة وثلاثين يوماً، فأنا لم أغب عنكم كثيراً.. أم أنكم تريدون أن ينزل عليكم غضب اللّه، وإذا كنت بينكم ولم أغب عنكم إلا مدة قصيرة فماذا ستفعلون من بعدى؟ فموسى يستنكر على قومه أن يضلوا، وهو يعيش معهم ولم يغب عنهم إلا أقل من أربعين يوما ذهب فيها لميقات ربه.

ومعنى: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ يشير إلى أن موسى كان له موعد مع قومه، حيث أوصاهم قبل أن يذهب لميقات ربه، وقال لهم: اسلكوا طريق هارون، واستمعوا لأوامره حتى أرجع، فهو الذى سيخلفنى فيكم، فكأن موسى عليه السلام يقول لهم: حتى وإن طال عليكم العهد منى فمعكم هارون، وهو ليس فردا عاديا، ولكن اللّه أشركه فى الرسالة معى، فكان يجب أن يكون له مهابة الرسالة، وأن تسمعوا له وتطيعوا.

فمعنى ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أى نحن لم نخلف موعدك بإرادتنا، لكن حدثت أشياء أقوى منا، والأوزار: جمع وزر، والوزر: هو الشئ الثقيل الحمل على النفس، كما يطلق الوزر على الإثم؛ لأنه يثقل على النفس ثقلاً يتعهدها فى الآخرة أيضا.

ولكن ما هى الأوزار التى حملوها؟ هذه الأوزار كانت من زينة القوم، وهم قوم فرعون، وقصتها: أنهم كانوا فى أعيادهم يستعير كل واحد من بنى إسرائيل شيئا من حلىّ القبط؛ يتزين به فى أيام الأعياد، وقد أخذوا هذه الحلى ولم يستطيعوا أن يردّوها إلى أصحابها؛ لأنهم أرادوا أن يُسِرّوا ساعة خروجهم؛ حتى لا يستعد أحد لصدهم ومنعهم من الخروج.

ومعنى قذفناها: القذف: هو الرمى بشدة، وكأن الرامى يتأفف من حمل هذا الشئ، فبنو إسرائيل قذفوا هذه الحلى، وهذا دليل على أن عندهم ساعتها إيمانا؛ لأنهم غضبوا لأخذهم هذه الأمانات وعدم استطاعتهم ردّها لأصحابها، ولذلك موسى السامرى دخل عليهم من هذه الناحية، فقال لهم: لن تبرأوا من هذا الذنب إلا بأن تلقوا هذه الحلى فى النار، مع أنه كان يقصد إلى شئ آخر، وهو أن الذهب سينصهر، ويخرج منه الخبث.

وإذا أمعنا النظر فى السياق القرآنى نجد، قول الحق سبحانه: ﴿فَقَذَفْتُهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فعندما تحدث عن بنى إسرائيل قال: ﴿فَقَذَفْتُهَا﴾ وعندالحديث عن السامرى قال: ﴿أَلْقَى﴾، والإلقاء فيه لطف عن القذف. ثم يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨] فالقوم حينما ألقوا الحلى فى النار لابد أنها انصهرت، ولكنها لا يمكن أن تتشكل على هيئة عجل، إلا إذا كان للسامرى عمل فيها، فصنعها على هيئة عجل ولكن لماذا العجل بالذات؟ قالوا: لأن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر، وجدوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إذن.. تشوقهم إلى الوثنية والصنمية موجود، فالسامرى استغل هذا التشوق ولم يصنع لهم صنماً من حجر، ولكنه صنع ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والخوار: صوت البقر، وقيل: إنه صنعه بطريقة خاصة، بحيث إذا دخل الهواء من جهة يخرج من الأخرى، ويعطى صوتا مثل خوار البقر، كما يحدث الآن فى بعض المزامير، فهذا فن وصنعة، وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾كلمة جسد ذكرها الحق سبحانه وتعالى فى حالتين اثنتين. فى الآية السابقة وفى قصة سليمان عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] ومعنى ﴿فَتَنَّا﴾ أى: اختبرنا.

فالسامرى أخرج لبنى إسرائيل عجلاً جسدا له خوار، وقال عن هذا الجسد ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨] لأنهم طلبوا صنماً فصنع لهم عجلا له صوت، فهذا ارتقاء فى الصنعة، ومعنى: ﴿فَنَسِىَ﴾ أى نسى خميرة الإيمان الموجودة فيه، وأن هذا خروج عن الإيمان إلى الكفر، وليته يكفر وحده، ولكنه يريد أن يكفر القوم معه. فلابد أنه نسى؛ لأنه لو كان على ذكر من خيبة هذا الفعل ما فعله، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] أى كيف يعبدون هذا العجل مع أنه لا يرد عليهم جوابا، ولا يملك لهم أى ضر أو نفع؟ فلو كان عندهم ذرة عقل ما فعلوا ذلك، ولذلك حين يتحدث القرآن عن الكفر فى سورة البقرة يقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فكأن الكفر باللّه جريمة شنيعة وعجيبة لا يمكن لأى عقل أن يقرّها؛ فهنا استغراب لما فعله بنو إسرائيل من عبادة العجل؛ لأنهم لو فكروا قليلا لوجدوا أنهم لو كلموا هذا العجل فلن يرد عليهم، لوجدوا أنه لا يضرهم ولا ينفعهم، ومعنى لا يرجع إليهم قولاً أى لا يردّ عليهم إن سألوه، ولا يملك

لهم ضراً إن كفروا به ولم يؤمنوا، ولا يملك لهم نفعا إن آمنوا به وعبدوه، ثم يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] ومعنى ﴿فُتِنتُم﴾ أى: اختبرتم بهذا العمل الذى جاء به السامرى.

والسامرى كانت أمه قد وضعته فى الصحراء، وبعد أن وضعته ماتت فى النفاس وتركته وحيدا فى الصحراء لا يجد من يقوم برعايته، قالوا: فكان جبريل عليه السلام، يتعهده بالرعاية والتربية حتى كبر، فالذى ربى السامرى هو جبريل عليه السلام والذى ربى نبى اللّه موسى هو فرعون؛ ولذلك الشاعر تحدث عن هذه اللقطة العجيبه فقال:

إذا لم تصادف فى بنيك عناية ... فقد كذب الراجى وخاب المؤمل

فموسى الذى رباه جبريل كافر ... موسى الذى ربّاه فرعون مرسل

موسى عليه السلام حينما ترك القوم وذهب لميقات ربه، استخلف عليهم أخاه هارون، وأوصاه أن يصلح أمور القوم ويمنعهم من أى فساد. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومعنى أصلح أى: أعمل الصالح، وبذلك أباح موسى لهارون أن يقدر المسائل التى يراها، ويعمل على إصلاحها قدر استطاعته، وهذه ستكون الشفاعة التى تشفع لهارون عند أخيه موسى، بعد عودته غاضبًا؛ لما رأى من ضلال القوم وفسادهم؛ لأنه وعظهم ولم يستجيبوا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] قال العلماء: إن عدد بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى كانوا ستمائة ألف، عبدوا العجل جميعهم إلا اثنى عشر رجلاً، ظلوا على عهدهم مع موسى وهارون. فلو أن هارون دخل معركة مع القوم بهؤلاء المؤمنين القليلين، لقضى عليهم أتباع السامرى، فهو رأى أنه من الأصلح أن يعظهم فقط، دون أن يدخل فى مواجهة معهم، وهارون بيّن لهم أنهم فُتنوا بهذا العجل الذى صنعه السامرى، وأن ربهم هو اللّه صاحب الرحمة الواسعة، وذكرهم بأن موسى أمرهم باتباعه وإطاعة أمره، ولكنهم لم يستجيبوا، وكان ردّهم كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] أى: أنهم لن يتركوا عبادة العجل، بل سيظلون عاكفين على عبادته، حتى يرجع إليهم موسى. وكلمة: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ معناها: أنهم سيظلون فى مكانهم، أو على حالهم الذى هم عليه من عبادة العجل، ولن يفارقوا الحال الذى هم عليه، حتى يعود إليهم موسى.

❁❁❁

عتاب موسى لأخيه هارون

قال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾ [طه].

موسى يسأل هارون عن الذى منعه من اتباعه، حين رأى القوم قد ضلوا؟ والسائل حين يستفهم عن شىء، قد يخاطب إنسانا وهو لا يعلم ذنبه، ولكنه يذكر له صورة الذنب حتى يسمع الردّ منه، وحتى يكون الرد على من يعترض عليه. فعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه مثلا وقف عند الحجر الأسود وقال: إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول اللّه يقبلك ما قبّلتك.

إذن.. هو يقبّله اقتداء برسول اللّه ﷺ، ولذلك جاء بهذا الكلام؛ ليعطينا الجواب الذى سيظل ناطقا فى التاريخ، بأن النبى ﷺ هو الذى فعل ذلك، فعمر رضى اللّه عنه أثارها شبهة حتى نسمع منه الردّ، وحين نسمع هذا الردّ يظل سائرا طول الأزمان.

بعد ذلك ردّ هارون على أخيه موسى موضحا موقفه، ومدافعا عن نفسه، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]؛ الحوار بين موسى وهارون لم يقتصر على الكلام فقط، ولكن يبدو أنه صاحبَه حركة فعل، أخذناها من كلام هارون: ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ ﴾، وعلّة ذلك أن هارون خشى أن يظن موسى أنه فرّق بين بنى إسرائيل، ولم يراعِ نصيحة موسى له، بأن يصلح بين القوم، والإصلاح: أن يحافظ على سلامة القوم، ويعمل الصالح لهم، فلو دخل معهم فى معركة، لقضى العدد الأكبر من عبدة العجل، على العدد القليل من المؤمنين الموحدين مع هارون، الذين ظلّوا على عهدهم مع موسى عليه السلام، ولو حدث ذلك لانتهت خليّة الإيمان فى بنى إسرائيل. فهارون اجتهد وعمل على الحفاظ على القوم، فى إطار نصيحة موسى له، فكأن موسى سأل هارون؛ ليسمع منه الإجابة ودفاعه عن نفسه؛ ليحفظها التاريخ وتسمعها الدنيا كلها.

وقوله: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾، فكأن الذين كفروا من قوم موسى كانت بينهم وبين هارون عداوة، وقاومهم على قدر طاقته البشرية.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠]؛ أى لا يظن أحد أن هارون انضم إلى هؤلاء الناس الذين عبدوا العجل، أو على الأقل أنه وافقهم.

إذن.. فهناك موقفان، موقف موسى الذى يملؤه الغضب تجاه ماحدث، وموقف هارون الذى يبين العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه.

حينما قال هارون ذلك، تنبَّه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول: كيف يلقى الألواح وفيها المنهج؟

والأمر الثانى: كيف يأخذ أخاه بهذا الغضب الشديد قبل أن يتبيّن الحقيقة؟ حين أحسّ موسى أن الغضب قد أخذه، فمنعه من أن يتريّث قبل أن يتصرف، فاتجه إلى السماء، وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وطلب موسى الغفران من اللَّه، كان عن إلقائه الألواح وظلمه لأخيه. ولكن لماذا يطلب موسى الغفران لأخيه؟ لأن هارون كان يجب أن يقاتل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم وعبدوا العجل، بعد أن غمرهم اللَّه سبحانه وتعالى بمعجزاته وآياته.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، إذا سمعنا أرحم الراحمين، تذكرنا خير الرازقين، وخير الوارثين، وأحسن الخالقين، نعرف أن كل صفة للَّه تتعدى إلى خلقه، لابد من استخدام صيغة التفضيل، فاللَّه سبحانه وتعالى قد وضع فى خلقه الرحمة، وطلب منهم أن يكونوا رحماء بمن هم أضعف منهم؛ لذلك يوجد رحيم ويوجد راحم، ولكن المخلوق حينما يتخلق بالرحمة، فإنه يرحم واحدا أو اثنين أو جماعة، كل حسب قدراته وقوته، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم، قوته لا نهاية لها؛ ولذلك فإن رحمته لا نهاية لها، ولذلك فهو ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

❁❁❁

سكوت الغضب عن موسى

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ فهل الغضب له سكوت وله كلام؟ نقول: نعم؛ لأن الغضب يهيج النفس ويلحّ عليها أن تتحرك وتنفعل، واللَّه صوّر الغضب فى صورة إنسان يلح على موسى أن يفعل كذا وكذا، ولكن عندما أحس موسى وأفاق، وتذكّر أن اللَّه غفور رحيم، سكت عنه الغضب، كأن الغضب هو الذى أهاج موسى حين دخل إلى نفسه وأخذ يأمره بكذا وكذا، فلما سكت عنه الغضب عاد موسى إلى هدوئه، فكأن سكوت الغضب معناه أنه زال وانتهى.

obeikandl.com

عندما زال عن موسى الغضب، ماذا فعل؟ أول شيء فعله أنه أخذ الألواح، فالغضب جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ونحن نسمع كثيرا عن النسخة من الكتاب، والنسخة هى الشيء المنسوخ، أى المنقول من مكان إلى مكان، عندما يوجد كتاب مخطوط ثم نطبعه، نكون قد نقلناه من الأصل إلى الصورة، فيصبح منسوخا.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ الهدى هو الطريق الموصل إلى الغاية، ومنهج اللَّه هو هداه للناس؛ ليهتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى رضا اللَّه، ومن اتبع الطريق استحق رحمة اللَّه.

إذن.. فما هو مكتوب فى الألواح يهدينا إلى طريق اللَّه، ويجعلنا نستحق رحمته، ولكن لمن؟ يبيّن الحق سبحانه لنا الصورة فيقول: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، حتى نعرف أن الألواح فيها هدى ورحمة لمن خاف ربه، وليس لمن سمعها وغفل عنها ولم يعمل بها، وصفات الجبار سبحانه وتعالى تهدى إلى طريقه؛ لأنك إذا استحضرت صفات الجبار خفته، وإذا خفته ملأت رهبته قلبك، إذن فلابد أن ترهب اللَّه، فتتبع منهجه، فتنال الهدى والرحمة، ولكن الرهبة قد تكون مظهرية، أى أنه من الجائز أن تتظاهر برهبة اللَّه ليقال عنك: عابد، أو رجل صالح؛ أى أن تفعل ذلك طلبًا للسمعة ورياء للناس، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أى لا يخافون أحدا إلا اللَّه، ولايفعلون شيئا رياء أو نفاقاً أو سمعة، وذلك هم أصحاب الإيمان الصادق.

❁❁❁

اختلاف بنى إسرائيل على موسى

الحق سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠] إذن.. فقد تقدم أمران على ضمير الغائب: «موسى، والكتاب»، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلف فى من؟ فى موسى أم فى الكتاب؟ نقول فى الاثنين؛ لأن الخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر، فلا يوجد انفصال بين موسى والكتاب؛ لأنه لاتكون مهمة موسى لولا الكتاب الذى أنزل عليه؟ وماذا يكون موسى لو أن اللَّه لم يرسله رسولاً؟

إذن فهناك أمران يلتقيان، أمر الرسالة والرسول فى الاصطفاء، إذن فهما أمر

واحد، وليسا أمرين؛ لأنه لا يوجد رسول منفصل عن رسالته، فالمنهج والرسول واحد. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ هذا هو المذكور الأول: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ عاد الضمير على الأول، ولذلك لو اختلف فى موسى أهو رسول أم غير رسول؟ وقيل إنه غير رسول انهدم الكتاب؟ ولو اختلف فى الكتاب هل هو صدق أم كذب؟ وقيل كذب، انهدم الرسول.. إذن فهما ملتقيان.

اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكان يمكن أن يقول: «ولقد آتيت موسى الكتاب»؛ لأن الذى آتى موسى الكتاب هو اللَّه، ولكنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأن الفعل يحتاج إلى صفات الكمال فى اللَّه وهى متعددة، والكتاب محتاج إلى حكمة، وإلى علم، وإلى قدرة، وإلى عفو، وإلى جبروت، وإلى قهر، وغير ذلك من صفات الكمال فى اللَّه سبحانه.

الحق سبحانه وتعالى قد آتى قوم موسى الكتاب فاختلفوا فيه، فلماذا لم يأخذهم اللَّه كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم مدين وقوم عاد؟ لماذا لم يأخذهم بالعذاب؟ لأنه أجّل لهم العذاب إلى يوم القيامة، فكأنهم مانجوا من عذاب اللَّه بقدرتهم، وإنما نجوا من عذاب اللَّه لأن اللَّه جعل للعذاب أجلاً هو يوم القيامة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠] إذن.. فاللَّه جل جلاله حكم حكماً بأن يؤجّل لهم العذاب، وكان حكمه فى الأمم السابقة أن يعجل لهم بالعذاب، فالذين خالفوا دعوة نوح ولوط وصالح وغيرهم، عجل لهم العذاب لكن بدءًا من رسالة موسى عليه السلام حكم اللَّه تعالى بأنه سيؤجلهم إلى يوم القيامة، هذه هى الكلمة التى سبقت، والتى قال اللَّه تبارك وتعالى عنها: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] فى شك من ماذا؟ من دينهم؟ أم من لقاء ربهم؟

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١] إذن.. فقد كانت الرسل قبل موسى إذا كُذِّبتْ، فالأمة التى تكذب رسولها يأخذها اللَّه بعذاب من السماء، فأجّل اللَّه العذاب إلى يوم القيامة، ولا تعتقد أن تأجيل العذاب إلى يوم القيامة بأنهم نجوا منه، أو أن اللَّه سينساهم بل إن كل واحد منهم سيوفّى جزاءه، الثواب لمن أطاع، والعقاب لمن عصى وأذنب، ولكنه أمرٌ آتٍ لا محالة؛ إن كل واحد من هؤلاء الذين اختلفوا فى الكتاب وعصوا موسى، سيلقى جزاءه على قدر الأعمال والذنوب التى ارتكبها، فإن تاب وعمل صالحاً، فسيجزى أجره يوم القيامة.

❁❁❁

هل كل قوم موسى نقضوا العهود؟

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ولقد قلنا: إنه عندما أخذ موسى الألواح وجد فيها رحمة من اللَّه وفضل لأمة من الأمم، فقال: يا ربى اجعلها لأمتى، فقال اللَّه: هذه لأمة محمد.

وقال موسى لربه: إنى لأجد فى الألواح من يؤمنون بالكتاب الأول، ويؤمنون بالكتاب الآخر، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة محمد.

فكأن أمة محمد وحدها التى تؤمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرها من الأمم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] عندما قال اللَّه عن قوم موسى: أنهم ينقضون العهود لم يكن هذا الكلام حكمًا عامًا؛ لأن الحكم لو كان عاماً لما وجد فى أمة موسى من يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن هناك مثلا ابن صوريا وعبد اللَّه بن سلام وغيرهما من قوم موسى آمنوا برسول اللَّه ﷺ.

إذن.. فهناك دائما شئ اسمه ضمان الاحتمال، فإن منهم من لم ينضموا إلى عامة اليهود فى المعصية والبعد عن طريق اللَّه، هؤلاء الذين يقول اللَّه عنهم: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أى يدلّون الناس على طريق الخير، ويعدلون فى حكمهم بين الناس، وهم هؤلاء الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك فإن الحكم لم يعمهم؛ لأن خبر الإيمان برسالة محمد ﷺ كان موجوداً فى أصلاب عدد ولو قليل من أمة موسى.

❁❁❁

موسى والخضر عليهما السلام

قصه موسى والخضر قصة العجائب الغيبية التى يقف أمامها العقل البشرى خاشعًا ومسلمًا، فهى قصة رسول موحى إليه ومعه منهج حياة ممثلاً فى التوراة، فيه افعل ولا تفعل، وقصة عبد صالح آتاه اللَّه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا، ولكل خصوصيته.

obeikandl.com

روى التاريخ أن موسى عليه السلام قام خطيبًا فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأله رجل هل تعلم أحداً أعلم منك؟

قال: لا. فأوحى اللّه إليه إن لى عبدًا بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك. قال موسى لربه: فكيف لى به؟

قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتًا فى مكتل، واصطحب فتاه يوشع بن نون، وقال له: إذا فقدت الحوت فأخبرنى. ثم انطلق، وانطلق معه فتاه، حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس، فناما، ومسَّ الحوت بعض الماء فاضطرب فى المكتل، وأخذ سبيله فى البحر سربًا. فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة، فلما استيقظ موسى نسى أن يسأل يوشع عن أمر الحوت، ونسى يوشع أن يخبره بماحدث. فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا لم نعهده من قبل - ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل مالاقاه منذ جاوزا الصخرة - ولماهمَّ يوشع لإعداد الطعام تذكر الحوت الذى تسرب إلى البحر، فقال لموسى: أرأيت إن أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان، وقد اتخذ سبيله فى البحر بحالة تدعو إلى العجب.

فقال موسى: إن فقدان الحوت هو ما كنا نبتغيه؛ لأنه أمارة على الفوز بما نطلبه، فعادا إلى الطريق الذى جاءا منه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف] ومع أن موسى رسول ،إلا أنه لم يتأبَّ أن يعلّمه عبدٌ من عباد اللّه، تقرب إلى اللّه بالمنهج الذى جاء به موسى، وله اصطفائية مخصوصة فموسى عليه السلام مرسل لتبليغ الرسالة - افعل ولا تفعل - والخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم للّه الذى قد تغيب نتائجه على سُلّم العقل، فإذا ظهرت حكمة الغيب فيه، آمن به العقل، وهذه الاصطفائية للخضر ليس معناها أن يفهم البعض أنه فوق موسى عليه السلام، لا. إنما لكل وجهة اللّه موليها.

إن قول موسى للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مهما رُفِعتْ درجة الإنسان، فإنه يجب ألا يتكبر، بل لابد أن نتواضع جميعا؛ فالكبرياء للّه وحده، ويجب ألا يغتر إنسان بعلمه، أو بما آتاه اللّه من فضله فيتكبر فى الأرض.

العبد الصالح حين طلب منه موسى أن يتبعه ليتعلم منه، قال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف] وهكذا قدم العبد الصالح عذرا لموسى، بأنه لن يستطيع أن يصبر. وليس هذا لنقص فى موسى عليه السلام، ولكن لأن اللّه أخبر العبد الصالح بأمور لم يخبر بها موسى.

فيقول موسى وهو من أولى العزم من الرسل: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

المشهد الأول من مشاهد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: رغم أن موسى وعد العبد الصالح بعدم السؤال، أو عصيان الأمر، وأن يكون صابرا ،رغم ذلك لم يطق الصبر على حادث خرق السفينة؛ لأن خرق السفينة فى البحر مؤداه غرق السفينة بمن فيها، أمام هذا موسى عليه السلام لم يصبر ولم يلتزم الصمت؛لهذا قال للعبد الصالح: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] لقد شك موسى فى ظاهر الأمر، ولكن عندما أدرك الحكمة، وجدها عين الخير، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة، لأخذها ملك ظالم يأخذ السفن غصبا؛ وذلك قول الحق تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] فلو لم يخرقها العبد الصالح، لما احتفظ أصحاب السفينة بسفينتهم، وإن كان بها عطب.

المشهد الثانى من مشاهد القصة: وفى مشهد آخر أعطانا اللّه المثل بشئ لا يوجد أعظم منه، وهو القتل. لقد قتل العبد الصالح غلاما، ما الحكمة فى ذلك؟

إن الإنسان ينجب ولدًا حتى يكون قرة عين وسندا له فى الدنيا، فإذا ماكان هذا الولد سبباً فى فساد الدين فإنه يقود إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد اللّه هذا الولد من طريق أبيه؛ لأنه سيكون وسيلة لاختلاله.

وقد يقول قائل: وما ذنب الولد؟ نقول للقائل: أنت لا تعى الحكمة من ذلك، فقد يكون الولد ذهب إلى ربه بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى، إذن يكون قد ذهب إلى رحمة اللّه مباشرة، أو اقتضت حكمة العليم سبحانه أن يزيح هذا الولد من طريق أبويه؛ لأنه طُبع كافرًا، وسيشقى به والداه المؤمنان. لذلك كان القتل رحمة من اللّه تعالى لوالديه.

المشهد الثالث من مشاهد القصة: ومشهد آخر مع العبد الصالح وموسى، تتجلى فيه حكمة الحكيم، وإرادة العليم، لقد ذهب الاثنان إلى قرية، واستطعما أهلها، أى: طلبا من أهلها طعاما، لقد ورد التعبير فى القرآن عن ذلك بدقة: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ إن الواحد منهما لم يطلب نقودا؛ وذلك حتى لا تثار الظنون

السيئة، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه. لقد طلبا أولى الحاجات الضرورية للإنسان؛ فقالوا لهما: لا، لن نعطيكما، لقد كانوا لئاما.

ولما رأى العبد الصالح جدارا يريد أن ينقض فأقامه، فقال موسى عليه السلام متسائلا: لماذا لا تأخذ منهم أجرا خاصة وأنهم منعونا الطعام؟

هنا يوضح العبد الصالح لموسى عليه السلام سبب قيامه بهذا العمل والحكمة منه فيقول: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] إن أهل القرية لو علموا أو رأوا هذا الكنز لأخذوه، فهم لئام، ولضاع حق اليتيمين.

فائدة: إن الذى قص علينا قصة الخضر عليه السلام هو اللّه تعالى، وأنها حدثت مع نبى اللّه موسى عليه السلام، فإذا جاء أحد الآن وادّعى أنه الخضر، فهو كاذب. فإنه لايوجد خضر لكل زمان لا باسمه ولا بصفته، إنما هى مسألة ضربها اللّه تعالى؛ حتى تكون قضية عقدية يستقبل بها الناس أحداث الحياة فى مالهم إن كان سفينة، وفى ذواتهم إن كان ولدًا، وفى جفوة الناس عنهم إن كانوا ظالمين.

إذن.. الغاية من القصة الرضا بالقضاء والقدر، والتسليم لأمر اللّه تعالى، وأن كل ما يحدث فى الكون هو بقدر اللّه، وله سبحانه فى ذلك حكمة، فإن عرفتها حمدت اللّه تعالى وشكرته على ذلك، وإن جهلتها حمدت اللّه، فسبحانه المحمود على كل حال، وأمر اللّه كله خير.

كما أن الخضر عليه السلام قد انتقل إلى جوار ربه، وهو ليس بحى الآن كما يزعم نفر من العلماء، وكذلك لا يُنقل عنه شرع ولا علم.

وغاية القول فيه إنه عبد صالح من عباد اللّه، آتاه اللّه رحمة من عنده، وعلّمه من لدنه سبحانه علمًا؛ للقيام بمهمة، وقد أداها كما أرادها اللّه تعالى.

واللّه يقص الحق وهو خير الحاكمين.

❁❁❁

موسى.. وقارون

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

لقد أُبتلى موسى عليه السلام فى حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد، ابتلى أولاً: بفرعون الذى زعم أنه إله، واستعبد الناس، ثم ابتلى ثانيًا: بموسى السامرى الذى صنع العجل ودعا بنى إسرائيل إلى عبادته، ثم ابتلى ثالثًا: بقارون.

اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، وقوله: ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعنى بنى إسرائيل، ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم: إنه كان ابن عم موسى، فهو قارون بن يصهب بن قاهث بن لاوى، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة.

ولما أمر اللّه تعالى بالزكاة ،كان على قارون من كل ألف دينار، دينار.

فسولت له نفسه أن هذا المبلغ كثيراً، فجمع نفرًا يثق بهم من بنى إسرائيل فقال: إن موسى أمركم بكل شىء فأطعتموه، وهو الآن يريد أخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بماشئت. فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغى فتجعلوا لها جُعلاً فتقذفه بنفسها، ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه.

ثم أتى عدو اللّه إلى موسى عليه السلام وقال له: إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم فقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت؟

فقال: نعم.

قال: فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة.

فقال: ادعها، فإن قالت فهو كما قالت.

فلما جاءت قال لها موسى: أقسمت عليك بالذى أنزل التوراة إلا صدقت. أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟

قالت: لا، فقد كذبوا ولكن جعلوا لى جَعلاً[1] على أن أقذفك.

فسجد ودعا عليهم فأوحى اللّه إليه: «مر الأرض بما شئت تطعك».

قال: يا أرض خذيهم.

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أُوتى، وشكروا اللّه تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون؛

---

(١) الجَعَالة: ما جُعل على العمل من أجر أو رشوة المعجم الوسيط [١/١٢٦].

ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

وكان قد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تبطر بما أعطيت ولتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب اللَّه فى الدار الآخرة، وتناول من الدينا بمالك ما أحل اللَّه لك، وأحسن إلى خلق اللَّه كما أحسن اللَّه - خالقهم وبارئهم - إليك؛ وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

فأجابهم قائلاً: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن اللَّه أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وأنى أهل له ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى.

فردَّ اللَّه تعالى عليه بأنه قد أهلك من الأمم الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أَشدُّ منه قوة وأكثر أموالاً وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا لم يعاقب اللَّه أحدًا ممن سبق، واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾ [القصص: ٧٨].

وكان عدو اللَّه قد خرج على قومه فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمنّوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح، والزهاد الألباء[1] حذروهم، وأرشدوهم إلى أن ما عند اللَّه فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد قص اللَّه تعالى تلك القصة؛ حتى يعلم الناس أن أحدًا لن يفلت من عذاب اللَّه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وأنه: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] ولن تغنى عنهم أموالهم ولا قوتهم من اللَّه شيئًا.

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من اللَّه ناصر: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ و﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وهى دار القرار، وهى الدار التى يُغبط من أُعطيها، ويُعزَّى من حُرمها، وأنها معدة للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادًا، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

❁ ❁ ❁

(١) الألباء: جمع لبيب وهو ذو لب أى العقلاء المعجم الوسيط [٢/ ٨١١].

نبيُّ اللَّه يوشع عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم: ابعث لنا ملكا نقاتل معه فى سبيل اللَّه، وتطلق كلمة الملأ على أشراف القوم ووجوههم، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد.

إن أشراف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا؛ يقاتلون تحت إمرته.

هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال، لقد أُخرجوا من ديارهم، أى بلغ بهم الهوان أنه لم تعد لهم ديار، وبلغ بهم الهوان أن تركوا أبنائهم أسرى أو عبيدا، لقد أخرجوا من أبنائهم وديارهم فماذا قال نبيهم لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ إن نبيهم يعرِفُهم؛ لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب اللَّه عليهم القتال، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون، فماذا كان جوابهم: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ ولنا أن نلحظ الدقة فى اللفظ القرآنى؛ لنتعلم سعة عطاء اللَّه، لقد قالوا: ﴿نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل اللَّه بالأسباب الموجبة للقتال، وهى أنهم أُخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم، وهم إما أسرى فى أيدى الذين أخرجوهم، وإما عبيد.

إذن.. فالمسئولية الكاملة تقع على هؤلاء القوم الذين أُخرجوا من الديار وتركوا الأبناء، وعندما طلبوا الإذن من نبيهم بالقتال وأن يولى عليهم ملكا يقاتلون تحت رايته، تشكك النبى فى قدرتهم، ومع ذلك أصروا فكُتب القتال عليهم.

ولنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يقل من الذى طلب القتال؛ ذلك أنهم قد

سألوه القتال فأصبحوا شركاء فى التعاقد حين كُتب عليهم القتال، لكن ماذا حدث؟ ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، أى أعرضوا عن القتال إلا نفرا قليلاً منهم ثبت على الأمر الذى طلبوه، وهو القتال فى سبيل اللَّه.

ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة؟ لماذا قال عن هؤلاء القوم أنهم: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؟ لقد قص اللَّه علينا خبر هذه القلة؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه؛ وذلك حتى يعلم المؤمن أنه حينما تنحسر الجمهرة عنه، فلا يقل: إنى قليل.. لماذا؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتالا فى سبيل اللَّه، فإن له رصيدًا ضخمًا من القوة متمثلاً فى إيمانه بالإله القوى القادر، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدة والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن اللَّه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] يعنى أن التولى والإعراض ظلم للنفس، ومعنى الظلم أنك تنقل حقا لغير صاحبه، إنهم أُخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال، فظلموا أنفسهم، وظلموا أولادهم، وظلموا مجتمعهم، وظلموا القضية العقدية.

لقد طلب هؤلاء القوم - من بنى إسرائيل - من نبيهم أن يبعث لهم ملكا، وكان يكفى النبى أن يختار لهم الملك؛ ليقاتلوا تحت رايته، لكنهم كعادتهم فى التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين.. كيف؟

يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال، إنهم يسألون النبى المرسل إليهم أن يسأل اللَّه أن يبعث لهم ملكا، فيقول لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ إن النبى المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن أمر اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو، إنما أمر الاختيار جاء من عند اللَّه، لكنهم يدخلون فى اللجاجة والتلكؤ؛ فيقولون: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لقد دخلوا فى مثل هذه اللجاجة؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين:

القسم الأول: هو نسل يأخذ النبوة، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بنيامين.

والقسم الآخر: يأخذ الملوكية، وهو الذى يأتى من نسل لاوى بن يعقوب.

لما عرفوا أن اللّه قد بعث طالوت ملكا عليهم، بدأوا فى النظر فى صحيفة نسبه، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء، فبدأوا فى اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الآمر، إذن فقد أخذوا المسألة على أن طالوت ملك جاء ليسيطر عليهم، رغم أن النبى أخبرهم أن طالوت جاء ليعمل لصالحهم، وليقودهم فى الحرب والمعركة. وهكذا يصبح اختيار طالوت أمراً يُحسب لهم وليس عليهم.

وهذا يدل على أن طالوت لم يكن من الشخصيات المشار إليها بالثراء والجاه، ونحن نعرف أن من عادة أى جماعة من الجماعات حين تفكر فى اختيار من يقودها، فإن العين تختار شخصية من الشخصيات اللامعة فى الجماعة ثراءً وجاها، وهذا الاعتراف من هؤلاء القوم، إنما يدلنا على أن طالوت كان من خيار القوم، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا من هذا السياق القرآنى كيف نختار الإنسان المناسب للمكان المناسب، إن الناس حينما يريدون اختيار إنسان ليقودهم من حال إلى حال، فعليهم أن يختاروا الشخص المناسب للمهمة لا أن يختاروا الرجل المناسب لهواهم؛ لذلك نجد هؤلاء القوم قد اعترضوا على اختيار طالوت ملكا لهم؛ لأنهم طلبوا الملك، غطرسة وكبرياء، بينما طالوت وإن كان غير مشهور فى الناس، فالذى بعثه ملكا هو اللّه، وهو أدرى بمن يناسب الموقف، وهذا يدلنا على أن اللّه يعلمنا أنه حين نريد الاختيار لرجل فى مهمة، فإياك أن يغريك حسب الرجل أو نسبه أو جاهه، ولكن اختر الرجل على قدر المهمة والرجل اللائق بها، وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة.

إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة؛ لأن أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة، فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها. والقضية التى نحن بصددها الآن تثير سؤالا: ألستم أيها القوم تطلبون ملكا لكم؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم فى الحرب إلى النصر؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين:

الصفة الأولى: أن يكون الرجل جسيما.

والصفة الثانية: أن يكون الرجل عليما. والذى اختاره اللّه ملكا لهؤلاء القوم، إنما كان يتمتع بالصفتين فى آن واحد ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم، تلك الدقة المتناهية فى أداء الكلمة للمعنى وفى تصوير الموقف الذى أراد الحق إبلاغه للخلق، لقد قال النبى المرسل لهؤلاء القوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وكلمة ﴿بَعَثَ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء القوم، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم، لكن

بعد أن ردّوا بلجاجة وغطرسة وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ كان الرد: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

إذن.. جاء القول الحكيم ليحدد مكانة طالوت بينهم، لقد اصطفاه اللّه، واصطفاء اللّه لطالوت يعنى أنه لا يوجد بين هؤلاء القوم من يماثله للمهمة التى يجب أن يقوم بها.

الآية الربانية لاختيار طالوت ملكاً

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨] الحق يأتى بالمعجزة التى تؤكد اختيار اللّه لطالوت ملكا. ولقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب ودون لجاج؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ الاختيار هو نبيهم الذى وثقوا به ولجأوا إليه، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب. ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسلة من الحق سبحانه وتعالى، إنها الآية الربانية التى تدل على صلاحية طالوت للمُلك باختيار من اللّه، تلك الآية هى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل:

المسألة الأولي: إن التابوت كان غائبًا مفقودًا.

المسألة الثانية: إن التابوت كان أمره معروفا لكل هؤلاء القوم.

المسألة الثالثة: إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت.

فما هو التابوت؟ إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ... ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

فالتابوت الذى جاء آية لملك طالوت، هو التابوت الذى أوحى اللّه إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها، وتلقيه فى اليم؛ ليلقيه اليم إلى الساحل، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة. وما الذى كان فى هذا التابوت؟ يقول تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾. وكيف يأتى؟ يقول تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

إذن.. ما دام التابوت يحمل تلك الآثار، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بمايحمله من آثار آل موسى وآل هارون، ومادام هذا التابوت يأتى وتحمله الملائكة، فلابد أن أمره جليل وله مساس بأمور العقيدة، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا؛ ليدلنا على أنه كان مفقودا من بنى إسرائيل، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم، وإما أن هذا التابوت قد فُقد لتخاذلهم فى أمر العناية به.

وصورة مجئ التابوت تحرك المواجيد الدينية، وعندما يأتى التابوت محمولاً بواسطة الملائكة، نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنخلع لها القلوب، والتابوت يحمل آثارًا مما ترك آل موسى وآل هارون، فقد يكون بالتابوت بعض من صحف التوراة، وقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى عليه السلام.

وتقبل هؤلاء القوم طالوت ملكا لهم، وبدأ يمارس المهمة التى جاء من أجلها. لقد جاء لينظم القوم ليخوضوا حربا ضد عدو أخرجهم من الديار وأسر الأبناء؛ لذلك كان لابد أن يفصل طالوت الجنود عن القوم وذلك قول اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ ماذا يعنى الفصل؟ إنه يعنى عزل شىء عن شىء آخر.

والمقصود بقول اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ هو خروج طالوت بالمجموعة المقاتلة التى فصلها عن بقية القوم، والموجودة بمكان إقامة الجيش.

بعد أن فصل طالوت بالجند، بدأ أول مباشرة لمهمته، فقرر ألا يدخل المعركة بدون تجربة القوم الذين اعترضوا على أمر تعيينه ملكا، إنه يريد أن يدخل بجند مستعدين للقتال الفعلى. وكأن الحق قد وضع لطالوت منهج الاختبار.

ذكر اللّه تعالى أن طالوت قال لجنوده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

والابتلاء الذى أراده اللّه للجنود - التى تقاتل تحت راية طالوت الملك - كان يتلخص فى المرور على نهر، من يشرب من هذا النهر لا يكون من جيش طالوت، ومن لا يشرب منه سيكون من الجيش المقاتل، وقد أذن اللّه لهم أن يشرب الجندى بمقدار غُرفة من يد، ولنا أن نلحظ الدقة فى تصوير هذا الزمن، إنه يوحى فى النفس معانى كثيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إنه قول يوحى

بمعانٍ جمة وعميقة، إنهم سوف يمرون بعد عطش على نهر، والمأمون على القتال هو من يمر على النهر وهو عطشان؛ لأنه يلتزم أمر اللَّه بعدم الشرب من النهر، إنه إنسان يؤثر مطلوب اللَّه على مطلوب بدنه، لذلك هو مؤتمن على القتال، لم يقس اللَّه فى الابتلاء، بل أذن سبحانه بما يهدئ الإحساس بالعطش، وهو أن يشرب الإنسان ملء غُرفة من يده.

لقد سمح اللَّه بقليل من الماء على قدر الضرورة، فلماذا كان الابتلاء هكذا، وما صلة ذلك بالعملية الحربية المقبلين عليها؟

إننا نعرف أن المقاتل أثناء العملية قد ينفد منه الزاد، وهو عرضة لأن يحاصر بواسطة العدو، فإن امتلك المقاتل الشىء الضرورى الذى يسمح له بالحياة، واستطاع أن ينتصر على شهوته فهو قادر على الانتصار، وهو صالح للمهمة الحربية.

إذن.. فالاختبار الذى وضعه اللَّه كان مناسبًا للمهمة التى هم مقبلون عليها؛ لذلك نجد منهم من شرب من الماء ونسى المهمة، ومنهم من خضع لأمر اللَّه ولم يشرب إلا بالقدر الذى سُمح به، ومنهم من لم يشرب.

لقد مروا على أكثر من نقطة اختبار:

أولا: بأن كتب اللَّه عليهم القتال فتولوا إلا قليلا منهم.

ثانيا: بمسألة تعيين طالوت ملكا عليهم، جادلوا واعترضوا حتى جاءهم التابوت دليلاً على أن طالوت قد تم اصطفاؤه ملكا لهم بأمر من اللَّه.

ثالثا: باختبار المرور على نهر وهم عطشى، فلم يثبت إلا القليل منهم، وهم الصالحون للقتال.

إن التصفية المتكررة تتيح للمؤمن أن يعرف كيفية ميثاق الابتلاء؛ ليكون مستعدًا للجهاد فى سبيل اللَّه، فلا يجاهد فى سبيل اللَّه إلا المأمون على هذا الجهاد.

وتحين التصفية الأخيرة؛لقد جاوز طالوت النهر والذين آمنوا معه ويظهر لهؤلاء موقف جديد، لقد نجحوا فى أكثر من اختبار، لكن بعضهم عند الاختبار الأخير قال: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال البعض الآخر ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهكذا نرى اختلاف الشعور عند الفريقين لحظة رؤية جيش الخصم وقوته.

إن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين خافوا عند رؤية الجيش المقاتل، يختلف عن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين لم يهابوا الجيش الخصم، رغم أنهم رأوه، لقد اتحدت الرؤية واختلف النزوع باختلاف المواجيد.

وقد يقول قائل: ولماذا قال الحق هنا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؟ نقول لأن المدد يأتى على قدر الصبر.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] لقد طلبت القلة المؤمنة المقاتلة أن يُفرغ عليهم ربهم وخالقهم: الصبرَ، وأن يثبت أقدامهم فى القتال؛ وغاية الصبر وتثبيت الأقدام أن يتحقق النصر على القوم الكافرين، وهذا بعض عطاء اللَّه لمن يقاتل فى سبيله ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وتحقق أمر اللَّه، وانتصر المؤمنون.

obeikandl.com

نبيُّ اللَّه إلياس عليه السلام

قال اللَّه تعالى بعد قصة موسى وهارون فى سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

[الصافات].

قال علماء النسب هو: إلياس النشبى، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن العازر بن هارون بن عمران.

وقالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق، فدعاهم إلى اللَّه عز وجل، وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه: «بعلا»، وقيل: كانت امرأة اسمها: «بعل» واللَّه أعلم.

والأول أصح ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله. فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم. قال أبو يعقوب الأذرعى، عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال: إن إلياس اختفى من ملك قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك اللَّه الملك وولى غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة - أو قال: أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه.

وقال مكحول عن كعب: أربعة أنبياء أحياء: اثنان فى الأرض: إلياس والخضر، واثنان فى السماء: إدريس وعيسى عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧] أى للعذاب، إما فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة. والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٨] أى إلا من آمن منهم. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٢٩] أى: أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له فى العالمين، فلا يذكر إلا بخير، ولهذا قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أى: سلام على إلياس، والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين وقد قرىء: سلام على آل ياسين، أى على آل محمد، وقرأ ابن مسعود وغيره: «سلام على إدريسين»، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس. وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره.

قصص الأنبياء لابن كثير [٢١٥-٦١٥].

obeikandl.com

نبيُّ اللَّه حزقيل عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] إنهم بعض من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد، وكانوا ألوفا فهربوا وخافوا من الموت، فأماتهم اللَّه عدة أيام ثم أحياهم.

وقال بعض المفسرين: إنهم بعض من بنى إسرائيل، جاءهم نبأ وباء شديد الفتك بالناس، فهربوا وتركوا ديارهم حذر الموت، أو خوفاً من الموت، فأماتهم اللَّه ثم أحياهم.. لماذا؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحدا لا يفر من قدر اللَّه إلا لقدر اللَّه؛ لذلك عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون، قالوا له: أنفرُّ من قدر اللَّه؟ قال عمر: إنما نحن نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه. إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بملء جوارحه لله، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط، ولكن القدر الذى يريده اللَّه سوف ينفذ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلم أمره لله. وفى هذه الآية الكريمة: الحق أراد أن يوضح لنا أن كثرتهم وهم ألوف إنما هى جمهرة، لكنهم غثاء كغثاء السيل، فلم يكن بينهم ناصح للَّه، ولا آمرٌ بمعروف وناهٍ عن منكر، لقد اجتمعوا على الضلال؛ لذلك ساروا إلى الضلال ولقد ذكر الحق أنهم كانوا ألوفاً؛ ليبين لنا أنهم كثرة، والحق جل جلاله حينما يلفت فى بعض الأشياء إلى القيود إنما يريد بها مغزى، ويذكرها لسبب.

ونريد الآن أن نتعرف على موقف لغوى دقيق عند قول الحق فى كثير من الأشياء التى يريد بها: إبلاغنا بعلم ما، يقول سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وعندما يقول إنسان لإنسان: «ألم تر» فمعنى ذلك أنه يسأله، هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فالمقصود بها سماع لخبر قادم من عند اللَّه، وأنه ساعة يخبرك اللَّه بشىء سابق عن وجودك، أو بشىء متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته

بالفعل. لماذا؟ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وخلق لهم الحواس.

إن الحق سبحانه وتعالى لم يقل: ألم تسمع، أو: ألم نخبرك؛ لأن الحق حينما يخبرنا بشىء سابق عن وجودنا، أو بشىء متأخر عن وجودنا، فعلينا - نحن المؤمنين - أن نستقبل ما يخبرنا به اللَّه سبحانه استقبال ما رأيناه بالفعل، وذلك كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] فالرسول ﷺ لم ير ما حدث لأصحاب الفيل؛ لأنه ﷺ لم يكن ولد بعد، ولكن ما دام القائل هو اللَّه، فعلى المؤمن أن يأخذ قوله سبحانه مصدقًا مسلمًا، به وكأنه رؤية عين.

إذن.. قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ علة الخروج من الديار؛ إنما كانت مخافة أن يموتوا، ولم تتعرض الآية الكريمة إلى السبب الذى جعلهم يخافون الموت، وقد تعرض المفسرون لهذه الآية، وحاولوا أن يجدوا الأسباب التى دفعت هؤلاء القوم إلى الخروج من الديار هربا من الموت، وتكلم المفسرون كلاما طويلا منقولا من الإسرائيليات.. ولم يلتفت هؤلاء المفسرون إلى أن القرآن الكريم عالج هذا الأمر من الزاوية التى يريد الحق أن يبلغها إلى أمة الإسلام لأهميتها، وهى أن الخروج كان بسبب الخوف من الموت، هذه هى الزاوية التى أراد الحق أن يبرزها علاجا لهذه القضية، ولم يعط القرآن الكريم للخارجين من الديار ألوفا إلا سبباً واحداً وهو الحذر من الموت. ولم يحدد القرآن فى أى زمان كان هذا الخروج لعدم أهميته؟ ولا على يد من كان هذا الخروج؟ ولم يحدد القرآن من هم الأشخاص الذين خرجوا. وعدم تحديد الحق للزمان أو المكان إنما هو لهدف. إن هذا التجاهل للزمان أو المكان إنما المقصود به أن تظل العبرة والعظة بيِّنة ومحددة فى أنهم خرجوا من الديار ألوفًا حذر الموت، فأماتهم اللَّه ثم أحياهم، ولو أراد إيضاح الزمان المخصوص والمكان المخصوص والأشخاص المحددة لأوضحه. فالحق سبحانه حين يبهم فى قصة قرآنية الزمان والمكان والأشخاص؛ إنما يريد عمومية الزمان وعمومية الأشخاص هى حياة فى كل زمان، وحياة فى كل مكان، وحياة مع كل شخص.

ونستخلص من ذلك ومما تقدم أن محاولة بعض المفسرين للبحث عن زمان ومكان خروج الألوف المؤلفة من بنى إسرائيل من ديارهم حذر الموت لا يحقق هدفهم منه. فهذا البحث رغم نُبْل مقصده إنما يتم بهدف إثراء القصة، لكنه فى الواقع ينقلب إلى إضعاف القصة؛ لأن الحق أراد أن يبهم الأمر؛ ليبين أن الخروج

حذر الموت لا يمنع الموت فى أى زمان أو مكان. لقد خرجتم حذر الموت فما الذى حدث؟ أماتهم اللَّه؛ كما فى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾، لماذا؟ ليبين الحق للناس أن أمر الحياة والموت بيده وحده سبحانه، سواء كان ذلك الخروج للحذر من الموت، أو خوفا من وباء، أو هربا من لقاء الأعداء. ولو كانت القصة على لون واحد محدد من الحذر كالخوف من العدو، فهل كانت تعطى اللون الآخر من الحذر وهو الخوف من الطاعون؟ لا.

لذلك فحين يصدر الأمر من الحق بقوله: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾، فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم أو أمر عودتهم إلى الحياة، لكنه أمر قهرى؛ يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ويعودون للحياة بتمام طلاقة قدرته المتمثلة فى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فليس لهم أمر فى مسألة الموت أو العودة للحياة، إنه أمر قهرى.

فعندما قال الحق سبحانه لهم: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ فهذا أمر قهرى بالموت وبعودتهم إلى الحياة. أليس الموت هوماخافوه وفروا منه، واحتاطوا بالهرب منه؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر اللَّه. وقد يقول قائل: لماذا لم يتركهم اللَّه ليموتوا إلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبوا؟ نقول لمثل هذا القائل: لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه اللَّه منهجا للناس، وهو القرآن الكريم. إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة. يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم. ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً، فلا يخاف أحد الموت فى سبيل اللَّه.

لقد أراد اللَّه بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون فى سبيله أن القتال لايقدم أجلا، ولا يؤخر أجل، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١] إن الفضل أن تتلقى عطاء يزيد على حاجتك، والحق سبحانه وتعالى لا يعطى الناس فقط على قدر حاجاتهم، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجاتهم، بمعنى لومات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء أو بعدو، لكان هذا الموت فضلا من عند اللَّه؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء وهذا فضل من اللَّه، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل اللَّه لنالوا الشهادة أيضا، وذلك فضل من اللَّه.

نبيُّ اللَّه اليسع عليه السلام

ذكره اللَّه تعالى من الأنبياء فى قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال: كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام، فمكث ما شاء اللَّه أن يمكث يدعوهم إلى اللَّه مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه اللَّه عز وجل إليه، ثم خلف فيهم الخلوف، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا، وكثر الجبابرة وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك عنيد طاغ، ويقال: إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة، فسمى: ذا الكفل.

قال محمد بن إسحاق: هو اليسع بن أخطوب، وقال ابن عساكر: هو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام، ويقال: كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها، فلما رفع إلياس، خلَفه اليسع فى قومه ونبأه اللَّه بعده.

قصص الأنبياء لابن كثير [ص ٥٢١].

openkandil.com

نبيُّ اللَّه شمويل عليه السلام

هو شمويل ويقال: أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصًا بن عزريا.

قال مقاتل: وهو من ورثة هارون. وقال مجاهد: هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا.. اللَّه اعلم.

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم: أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وسبوا من أبنائهم جمعًا كثيرًا، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى، فجعلت تدعو اللَّه عزوجل أن يرزقها ولدًا ذكرًا، فولدت غلامًا فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع اللَّه دعائى.

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعورًا، فظنه الشيخ يدعوه فسأله: أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم نم. فنام.

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه، فجاءه فقال: إنَ ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص اللَّه فى كتابه.

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل. وقيل: شمعون. وقيل: هما واحد. وقيل: يوشع. وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه: أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة. فاللَّه أعلم.

قصص الأنبياء لابن كثير [٣٢٥/ ٤٢٥].

obeikandi.com

نبيُّ اللَّه داود عليه السلام

لقد كان داود أخا لعشرة من الأخوة هو أصغرهم. وقال النبى المرسل إليهم: إن الذى سوف يدخل المعركة لابد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه، وقد حاول كل واحد من إخوته أن يرتدى درع موسى عليه السلام، فلم يناسب الدرع إلا داود، ودخل داود المعركة ضد جالوت بهذه الدرع، فقتل داود جالوتَ، لقد كانت هذه هى بداية فتح الحق سبحانه على داود، وآتاه الملك والحكمة، لقد أحب داود صناعة الدروع؛ لأنها كانت بداية فتح، فقال الحق فى عطائه لداود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ]، وهب اللَّه داود عليه السلام فضل الحكمة والكتاب، وأمر الجبال بأن تردد التسبيح معه عليه السلام، وسخَّر له الطير، ووهبه اللَّه القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء، يصنع منها دروعا ذات نسيج معين، تتيح لمن يرتديها الحماية وهو يقاتل، وهى صنعة علمه اللَّه تعالى إياها.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ والتسخير هو قهر المسخَّر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه، فهو مقهور على هذا الشىء وليس مختاراً فيه.

وإذا كانت الطيور لها أصوات يمكن أن تسبح بها، فكيف تسبح الجمادات كالجبال وغيرها؟ العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التكليف، وليس بعقل ولب الأشياء، فقالوا: هو لا يرى الجبال والجمادات تتكلم، بينما يرى الطير لها أصوات تعبر بها عن مراداتها، ولكن لا يسمعها تتكلم.

ونحن نقول: وما هو العجب فى ذلك؟ إن العجب يزول حينما نجرى مسحًا للكرة الأرضية فمثلاً أجناس البشر على اختلافهم فيهم أشياء تختلف فى السمات، والأشكال، والألوان، حسب البيئات التى يعيشون فيها، لكن الغرائز يشترك فيها الجميع.

كذلك يمكن للإنسان أن يتعلم - بإذن اللَّه - لغة الطير، أو الحيوان، بدليل أن اللَّه تعالى أخبرنا أنه علَّم سليمان منطق الطير، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَرِثَ

سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، ومن الممكن أن يمن اللَّه على أحد من خلقه ويعلمه منطق الجماد، فلماذا تستبعد ذلك؟!

وكان الهدهد يتكلم مع سليمان ويفهم كلامه، ليس هذا فقط بل إن القرآن أخبرنا أن الهدهد كان يفهم قضية التوحيد وعبادة اللَّه وحده؛ لذلك استغرب حينما رأى بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون اللَّه.

بعض العلماء حينما سمعوا قول اللَّه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، قالوا: إن المقصود هنا ليس التسبيح الحقيقى، ولكنه تسبيح دلالة أى أنها بحالها تدل على الخالق، فكأنهم فهموا تسبيح هذه المخلوقات مع أن اللَّه الذى خلقنا قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذا يفيد أن هذه الأشياء كلها تسبح للَّه، ولكن نحن لا نفهم لغتها التى تسبح بها.

إذن.. ربنا سبحانه وتعالى أعطى لداود مزية أن الجبال تسبِّح معه. ومع ذلك فالجبال لا تسبِّح مع داود وحده، ولكنها تسبِّح مع غيره أيضا، ولكن الميزة أن داود كان تسبيحه يوافق تسبيحها.

ولذلك الناس يقولون: إن من معجزات النبى ﷺ أن الحصى سبح فى يده. ونحن نقول لهم: هذه العبارة غير دقيقة؛ لأن الحصى يسبح حتى فى يد الكافر. فقولوا: إن رسول اللَّه سُمع تسبيح الحصى فى يده.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]

تعليم اللَّه تعالى لداود عليه السلام صنعة لبوس، إن قلنا: بالوحى يصح، أو بالتجربة والخاطر يصح، وكل شىء فيه صنعة لابد فيه من عمل وحركة، فلا يؤخذ خاما. ومعنى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾: اللبوس من مادة «لبس» ولكن هناك لباسا ولبوسا، اللباس نعمله لنستر به عورتنا، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد. لكن فى حالة الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتلة من جسمه، اهتدى الناس إلى حماية مواقع الخطر فى أجسامهم، ومعروف أن رأس الإنسان وقلبه ما داما بعيدين عن الخطر، فإن حياته يمكن أن تستمر حتى لو تعرضت أجزاء أخرى من جسمه للخطر؛ ولذلك فإن المحارب يحاول أن يحمى رأسه بِوَاقٍ للرأس يسمى بـ «الخوذة». ويحمى منطقة الصدر والوجه باستخدام «الدرع الواقى».

وهذا ما كان يصنعه داود عليه السلام؛ دروع بحلقات تقى الجسم من

الضربات، فاللبوس أبلغ من اللباس؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس؛ لأنه يقى الإنسان البأس، والحرب، وضربة العدو فى مَقاتِل. ولذلك قال ربنا: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ومعنى تحصنكم: أى تمنعكم وتحوطكم وتحفظكم، ومعنى: ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أى من الحرب مع عدوكم.

❁❁❁

كتاب داود عليه السلام

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]؛ هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر الوحى عاما، ولكنه حينما جاء على داود ذكر اسم كتابه الزبور، ولم يأت فى هذه الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين، مثال ذلك: نزول التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، لماذا؟ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تجمع عليه كل الشرائع، وهو تمجيد اللَّه والثناء عليه، فلم يأت الزبور بأحكام. قد يقول قائل: إن عيسى أيضا لم يأت بأحكام فى الإنجيل! ونقول لمثل هذا القائل: لا، إن الإنجيل ملتحم بالتوراة، فالإنجيل جاء بالوجدانيات الدينية، والتوراة التى كانت موجودة قبله جاءت بالأحكام؛ ولذلك فمن عجيب أمر اليهود والنصارى: أنهم رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين العهد القديم والعهد الجديد، ويعتبرونه كتابا واحدا يسمونه الكتاب المقدس.

وقد يقول قائل: ما معنى الزبور؟ تقول: المادة مأخوذة من زبر البئر، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء، فإنهم يخافون أن ينهال التراب من جوانبه عليه فيطم البئر؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة. ونحن فى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت.

إذن.. فكلمة زبر البئر تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر، ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانى مختلفة فسموا العقل زبرا؛ لأنه يعقل الأمور، فإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر.. فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط.

إذن.. فالعقل لم يخلقه اللَّه ليتشتت الإنسان فى الأفكار، ولكن ليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر، إنه يعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال.